

الفصل السابع

الحياة الثقافية في آسيا الوسطى

أشهر العلماء

علماء بخارى وسمرقند

الإمام البخارى رضى الله عنه (١٩٤ - ٢٥٦ هـ) (٨١٠ - ٨٧٠ م)

هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخارى، الجعفى ولاهامير المؤمنين فى الحديث وإمام الأئمة، صاحب (الجامع الصحيح) المعروف بصحيح البخارى، الذى اختاره من بين ستمائة ألف حديث، وهو أوثق الكتب وأصحها بعد كتاب الله تعالى.

مولده وآبائه:

ولد الإمام محمد بن إسماعيل فى (بخارى) يوم الجمعة لثلاث عشر ليلة خلت من شوال سنة ١٩٤ هـ. وكان أبوه من أهل العلم والسعة فى الرزق، مشغلا بالتجارة وقد سمع من حماد بن زيد وابن المبارك، والإمام مالك بن انس فى المدينة المنورة وسمع منه (والمغيرة) هو أول من أسلم من (آباء البخارى) وكان إسلامه على يد أحد مواطنية واسمه (اليمان) وهو الجد الأعلى للمحدث الحافظ (عبد الله بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن اليمن المسندى الجعفى).

ونسب (البخارى) إلى الجعفى، مثل كثير من أهل بلاد ما وراء النهر، الذين انتسبوا إلى هذه القبيلة اليمنية، التى تنتسب إلى (جعفى بن سعد العشيرة بن مذحج ولكثرة من أسلم من الترك على يد هذه القبيلة، قال الشاعر:

وما كانت الأتراك أبناء مذحج إلا أن فى الدنيا عجيبا لمن عجب

وما ذلك إلا أن هؤلاء الأتراك، الذين أسلموا على يد هذه القبيلة اليمنية قالوا نحن أبناء لهذه القبيلة أو كالأبناء.

وقد أخرج هؤلاء الدعاة بفضل صبرهم وإخلاصهم لله - أفذاذا وعباقرة رفعوا شأن هذه الأمة، واعلوا مكانها، وخدموا الإسلام أعظم خدمة.

نشأته:

توفى والد الإمام البخارى وابنه (المبارك محمد) طفلاً صغيراً، فرعته أمه أيما رعاية، وذهبت به إلى مجالس العلماء يستمع إليهم، ويأخذ عنهم وهو طفل حدث، حتى قال الإمام (البخارى) عن نفسه: (الهمت حفظ الحديث، وأنا فى الكتاب، وعمرى عشر سنين أو أقل).

عبقريته ونبوغه المبكران:

وكان ممن يذهب إليهم، لاستماع الحديث، فى بخارى المحدث (الداخلى) وروى أن الداخلى قال يوماً - فيمن يقرره للناس (روى سفعان عن أبى الزبير عن إبراهيم) فقال الغلام النجيب، الذى لم يجاوز احدى عشرة سنة آنذاك: (إن أبى الزبير لم يرو عن إبراهيم) فظن المحدث (الداخلى) أن هذا الطفل يعبث، فانتهره لقلته أدبه مع أستاذه، فقال الغلام الألعى (ارجع إلى الأصل، إن كان عندك) فعلم الأستاذ من لهجة الغلام الجادة أنه غير عادى فذهب مسرعاً ودخل داره، يرجع إلى الأصل، فوجده كما قال (البخارى) فعاد من فوره إلى درسه، وقال للغلام: صدقت.

ويا له من درس بليغ، ما أحرانا أن نلتفت إليه: كيف يقف التلميذ الصغير للأستاذ الكبير ليقول له: أنت على خطأ، حينما يعلم أن ذلك خطأ، ثم كيف ترى الأستاذ الكبير لا يرى غصاصة فى أن يرجع إلى المراجع، ليستوثق من الحقيقة، وهو فى مجلس الصدارة والتعليم، ثم يرجع من فوره، ليخبر الناس أن هذا الغلام الصغير الذى لم يتجاوز الحادية عشرة على صواب، وأنه وهو العالم المحدث الأستاذ - على خطأ.

وهذه هى الجرأة المحموده، وهذا هو التواضع المحمود: حيث لا يخجل الصغير أن يقول للكبير أنت على خطأ، وحيث لا يستكبر صاحب المكانة أن يطاطب رأسه للحق، ويقول لقد أخطأت والغلام على حق.

وفى هذه السن الغضة الطرية - تلقى (البخارى) علوم الحديث من أئمتها فى بلاده من أمثال: محمد بن سلام البيكندى (وبيكند مدينة تبعد عن بخارى بأربعين

كيلو متر تقريبا) وعبد الله بن محمد المسندى الجعفى (البخارى) وكان شيخه محمد ابن سلام البيكندى يقول: كلما دخل على هذا الصبى تحيرت.

قال البخارى: (فلما بلغت فى سنت عشرة سنة - حفظت كتب ابن المبارك. ووكيع بن الجراح وعرفت كلام هؤلاء) (يعنى أصحاب الرأى من الفقهاء).

وفى هذه السن الغضة، عام ٢١٠ هـ/م، وهو ابن ست عشرة سنة، حج إلى بيت الله الحرام، مع أمه وأخيه (أحمد) الذى يصغر (البخارى) صاحب الترجمة.

وكان (البخارى) فى هذه الرحلة لا يدخل بلدا ألا ويسمع من حفاظها، فسمع فى (بلخ) (وهى عاصمة إقليم باكتيا فى افغانستان اليوم) من الحافظ (مكى بن إبراهيم بن عبد الله بن المثنى الأنصارى) وفى الكوفة سمع من (عبيد بن موسى العبسى) وفى (مكة المكرمة) سمع من شيخها وقارئها (عبد الله بن يزيد المقرئ)، وفى بغداد من (عفان بن نافع البهرانى)، وفى (دمشق) من (أبى مسهر عبد العلى بن مسهر الغسانى)، وفى (عسقلان من (أدم بن أياس)، وفى (فلسطين) من (محمد بن يوسف بن وafd الفريانى) (والفرياب قرية من بلاد ما وراء النهر وينتسب إليها الكثير من العلماء وتقع اليوم فى شمال أفغانستان).

وما تقدم ترى كيف استفاد الإمام (البخارى) الشاب الحدث، فى رحلته إلى الحج، استفادة عظيمة، حيث التقى بأكابر علماء الحديث، فى عصره، وأخذ عنهم واستمع إليهم، ووعته حافظته القوية، التى لا تكاد تفلت شيئا.

قال حاشد بن إسماعيل (كان البخارى يختلف معنا إلى مشايخ البصرة، وهو غلام، فلا يكتب حتى أتى على ذلك أيام فقابلناه بعد ستة عشر يوما، فقال البخارى: قد أكثرتم على، فاعرضوا على ما كتبتم، فأخرجنا، فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر قلب، حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه):

وتحدث (البخارى) عن فترة شبابه - قائلا (كنت فى مجلس الفريانى (فى فلسطين) فقال الأستاذ الفريانى: حدثنا سفيان وكان شيخ الفريانى) عن أبى عروة، عن أبى الخطاب، عن أبى حمزة، فلم يعرف أحد فى المجلس من فوق سفيان،

فقلت لهم: أبو عروة هو معمر بن راشد، وأبو الخطاب هو قتادة بن دعامة، وأبو حمزة هو أنس بن مالك).

وهذه الحوادث المتتالية في صبا الإمام (البخارى) تلقى الضوء على نبوغه البكر، وحفظه العجيب الفذ، معرفته التامة برجال السند ولذا عندما دخل (البخارى) إلى العراق (بغداد) وهو فى شبابه، تسبقه شهرته - إجتماع عشرة من علماء الحديث، وأرادوا إمتحانه، ومدى علمه، فقالوا للبخارى: سيروى كل واحد منا عشرة أحاديث: ونريد منك أن تخبرنا بها، فذكر الأول عشرة أحاديث يقلب أسانيدها، فلما انتهى نظروا إلى البخارى فقال للثانى قل ما عندك، فلما انتهى، قال للثالث: هات ما عندك، وهكذا حتى أتم العشرة أحاديثهم المائة المقلوبة الأسانيد، وقد ظن بعضهم أن (البخارى) يقول: لقد قلت يا فلان، وهو الأول، كذا وكذا، وعدد حديثه المقلوب السند، والصحيح كذا وكذا، ثم انتقل إلى الثانى والثالث حتى على المائة حديث، يعيد كل حديث قالوه، ثم يرد السند الصحيح، فعجبوا لحفظة الأحاديث المقلوبة السند، من مرة واحدة تقال له، أكثر من عجبهم من حفظه للأحاديث بأسانيدها الصحيحة.

تلاميذ البخارى:

وانتهت بعد ذلك إليه رئاسة الحديث، وأخذ عنه الجم الغفير من جهابذة العلماء، منهم الإمام (مسلم بن حجاج القشيري) صاحب (صحيح مسلم) وهو ثان كتب الحديث الصحيحة، وهو من (نيسابور) بخراسان، ونقع - اليوم - فى إيران، والإمام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى وهو من ترمذ فى أوزبكستان، ومنهم شيخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن نصر وكان من أعلم الناس بالسنن، واضبطهم لها، وأذكرهم لمعانيها، وأدراهم بصحتها، كما وصفه ابن حزم، وهو من مرو عاصمة خراسان (وتقع - اليوم - فى جمهورية تركمنستان).

ومن تلاميذه: الحافظ بن على صالح (جزرة) محمد بن عمرو الأسدى، نزيل (بخارى) وشيخ ما وراء النهر فى الحديث.

ومنهم: الحافظ أبو جعفر محمد بن عبد الله بن سليمان الخضرى الكوفى الأذرى الثقة (الدراقتنى) وغيره.

ومنهم: ابن خزيمة شيخ الإسلام أبو بكر محمد بن إسحاق السلمى الحافظ، صاحب المصنفات الكثيرة، التى تربو على مائة وأربعين كتاباً.

ومن أبلغ ما يوضع مكانة (البخارى) هذه الحادثة، التى يرويها أحد تلاميذ (البخارى) يوسف بن موسى المروزى: قال: (كنت بالبصرة فى جامعها: إذ سمعت منادياً ينادى: يا أهل العلم، قدم محمد بن إسماعيل البخارى، فقاموا إليه، وكنت معهم، فرأيت رجلاً شاباً ليس فى لحيته بياض، فصلى خلف الأستوانة، فلما فرغ احدقوا به، وسألوه أن يعقد لهم مجلساً للإملاء، فسألهم أن يجلس غداً فى موضوع كذا، فلما كان الغد، حضر المحدثون والحفاظ والفقهاء والنظارة، حتى اجتمع قريب من كذا وكذا ألف نفس فجلس أبو عبد الله للإملاء، فقال: يا أهل البصرة، أنا شاب سألتمونى أن أحدثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدونها (أى لم تعلموها من قبل فتعلموها منى) فتعجب الناس وأخذ فى الإملاء، روى هذا الحديث عندكم كذا، فأما من رواية فلان فليست عندكم، وهى كذا، فاستفاد منه أئمة علماء البصرة وحفاظها، حيث أعلمهم بطرق للحديث المروى عن أهل البصرة لم يكونوا يعلمونها من قبل.

تكفى هذه لترينا سعة علم (البخارى) بالحديث ورجاله: إذ المفروض أن يكون رب الدار أدرى بشئون بيته: فجاء (البخارى الفذ) وكان أعلم منهم بمروياتهم من الحديث وهو منتهى العجب.

اشتغال البخارى وبالتأليف:

لقد اشتغل (البخارى) منذ بداية شبابه بالتأليف، فقد قال عن نفسه: (طعنت فى ثمان عشرة سنة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاوليهم). وفرغ من ذلك فى سن العشرين وقال فى الليالى المقمرة. وكل اسم فى التاريخ إلا وله عندى قصة ألا أنى كرهت أن يطول.

وكان (البخارى) يقول «لا أجدى بحديث عن الصحابة والتابعين إلا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومسكنهم، ولست أروى حديثاً من حديث الصحابة والتابعين (يعنى حديثاً موقوفاً أو مقطوعاً) إلا وله أصل أحفظه عن كتاب الله وسنة رسوله».

وقال - رحمة الله - عن نفسه: «أقمت بالمدينة بعد أن حجبت سنة أكتب الحديث (وقد حج وعمره ستة عشر سنة) وأقمت بالبصرة خمس سنين مع كتي أصنف وأحج، وأرجع من مكة إلى البصرة.

وكان (البخارى) رحمه الله - يجمع إلى قوة الحافظة، التى يندر على مدى التاريخ مثلتها، قوة الإدراك والفهم، وبخاصة لرجال الحديث ورواته، وجمع فى ذلك الرواية والدراية كما يقولون، جمعا لم يتأت إلا للقليل من العلماء على مدى التاريخ.

الجامع الصحيح:

وأعظم مؤلفات (البخارى) هو كتابه (الجامع الصحيح) الذى أختاره من بين ستمائة ألف حديث، مدة ستة عشر سنة، وتحديث (البخارى) عن كتابه العظيم، قائلا: (ما أدخلت فيه حديثا حتى استخرت الله تعالى، وصليت ركعتين، وتيقنت صحته، وقد جعلته حجة فيما بينى وبين الله).

وعدد أحاديثه ٧٢٧٥ حديثا بما فيها المكرر أما غير المكرر فهى ٤٠٠٠ حديث فقد خروجها من ستمائة ألف حديث.

وكان يكتبه - أولا - فى المسودة، فإذا أراد تبييضه حضر إلى مدينة الرسول ﷺ، وجعل يحول تراجمه بين قبر النبى - ﷺ - ومنبره، وكان يصلى لكل ترجمة ركعتين.

وعرض (البخارى) كتاب (الجامع الصحيح) على أئمة المحدثين ن فى عصره من أمثال (على بن المدينى) و(أحمد بن حنبل) و(يحيى بن معين) فاستحسنوه، وشهدوا له بالصحة، إلا أربعة أحاديث.

وللإمام (البخارى) مجموعة أخرى من المؤلفات القيمة، نذكر منها: (الأدب المفرد) و(بر الوالدين) (كتاب الهبة) و(القراءة خلف الإمام) و(رفع اليدين فى الصلاة) و(التاريخ الكبير والأوسط) و(كتاب الكنى) و(كتاب الفوائد) و(خلق أفعال العباد) و(كتاب الضعفاء وقضايا الصحابة والتابعين).

وبعض هذه الكتب مفقود - للأسف الشديد - منذ أزمنة متطاولة.

وفاة البخارى:

وعاد (البخارى) أواخر أيامه إلى بلده (بخارى) وتعصب ضده مجموعة من الحاقدين عليه وأثاروا الغوغاء، فأخرجوه من بلده، فسار إلى (خرتنك) إحدى قرى (سمرقند) وأقام بها قليلا، ثم توفاه الله، بعد أن قدم للإسلام والمسلمين خدمة عظيمة جليلة القدر، بكتبه، وعلمه وتدرسه، في كافة المدن الإسلامية المشهورة - آنذاك - وأعظم كتبه وأبقاها أثرا (الجامع الصحيح).

وكانت وفاته عام ٢٥٦هـ (٨٦٩م) وقد ذكر ابن خلكان فى (وفيات الأعيان) أن أكثر من سبعين ألف من الطلبة درسوا (الجامع الصحيح) على يدي الإمام (محمد بن إسماعيل البخارى) أثناء حياته، رحمه الله رحمة الأبرار.

ومن علماء بخارى، الذين يذكرهم التاريخ، ولكن لم يصلوا إلى مكانة (أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى) المتقدم ترجمته، ومع هذا فقد كان لهم دور كبير فى نشر العلم، فى بخارى) وغيرها من بلاد ما وراء النهر، ومراكز الحضارة.

الإسلامية على اختلافها نتيجة لتلك الرحلات المستمرة التى لا تكاد تنقطع وتلك الجهود المباركة التى جعلت الأمة الإسلامية، من حدود الصين شرقا، إلى جبال (البرانس) فى شمال أسبانيا غربا، بلادا واحدة يتجه غليها المسلم يقيم فى أى بلد شاء، دون حواجز مصطنعة ولا جوازات سفر، ولا طلب إقامة وإنما هى دار متصلة تسمى (دار الإسلام) يتلقى العلم وينشره فى جميع تلك الديار، بدون فروق أو حواجز، بل على العكس تنهافت القلوب والأسماع، للانتظام فى حلقاته والاستفادة من درسه وتمتد إليهم الأيدي بالمحبة والمودة، وتفتح لهم ديار وأبوابهم، وتجلهم وتكرمهم، لأنهم ورثة الأنبياء، وأحق الناس بالتكريم والتعظيم، أينما حلوا وحيثما ذهبوا وانتقلوا، ومنهم علماء بخارى (محمد السبذمونى قاضى القضاة) فى عصر إسماعيل السامانى، وقد ظهر بعد وفاة الإمام البخارى، وتوفى هذا القاضى الفقيه سنة ٣٠٤ هـ - (٩١٦م).

ومن هؤلاء العلماء الأفاضل الذين أنجبتهم (بخارى) شمس الأئمة عبد العزيز ابن أحمد الحلوانى البخارى، المتوفى سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م الفقيه الحنفى،

المعروف بإمام أهل الرأى صاحب التصانيف فى الفقه الحنفى وفروعه، نذكر منها كتابه (المبسوط) فى الفقه، (النوادر) فى الفروع، و(الفتاوى) وهى مجموعة فتاوية، (وشرح كتاب أدب القاضى) الذى ألفه أبو يوسف، توفى فى قرية بالقرب من بخارى ودفن فى بخارى.

ومن قرية (طوس) وهى طواويس إحدى قرى بخارى (وهى غير مدينة طوس فى خراسان التى ظهر منها الإمام الغزالى وعمر الخيام) ظهر أبو جعفر رضوان بن عمر الطوسى (من علماء الحديث)، ومنهم الفقيه ظهير الدين محمد بن عمر البخار الذى تولى الحسبة فى (بخارى) كما تولى التدريس، فترة طويلة ومن كتبه الفتاوى الظهيرية، وتوفى فى بخارى سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م وأهل بخارى بل وأغلب سكان ما وراء النهر أحناف، ولذا فإن من ظهر منهم فى الفقه كان ذلك على وجه الخصوص فى الفقه الحنفى.

ومن هؤلاء طاهر بن أحمد بن عبد الرشيد البخارى، الفقيه الحنفى، صاحب (خلاصة الفتاوى) والواقعات و(النصاب) وجميعها فى الفقه الحنفى، (ولد سنة ٤٨٢هـ / ١٠٩٠م توفى ٤٥٢هـ / ١١٤٧م) ومنهم علاء الدين عبد العزيز بن أحمد بن محمد البخارى الفقيه الحنفى الأصولى الذى قام بشرح بعض كتب الأحناف المتقدمة فشرح البخارى الفقيه الحنفى الأصولى الذى قام بشرح بعض كتب الأحناف المتقدمة فشرح (المنتخب الحسامى) (أصول البرزودوى) وتوفى سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م ومن هؤلاء أبو حفص البخارى المولود سنة ١٥٠هـ / ٧٦٧م أستاذ الإمام البخارى، وقد أحدث حركة فكرية قوية فى بخارى وما حولها، قال عنه النرشخى فى تاريخ بخارى (ولم يكن أحد مثله فى الولاية، وكان زاهدا وعالما أيضا وصارت بخارى بسببه قبة الإسلام، والسبب هو أن أهل بخارى تعلموا فنشأ فيها العلم وصاروا أئمة وعلماء محترمين وكان هو السبب).

ومن أعلام قرى بخارى عبد الله بن محمد الكلاباذى السبذمونى من سبذمون إحدى قرى بخارى ولد سنة ٢٥٨هـ / ٨٧٢م، ورحل فى طلب العلم إلى خراسان والعراق والحجاز، واشتهر باسم الأستاذ وكانت وفاته سنة ٢٤٠هـ

٩٥٢ م، ومن اشتهر وظهر من أهل بخارى الشيخ الرئيس ابن سينا الذى ولد فى إحدى قرى بخارى ونشأ وتعلم فى بخارى ثم طاف البلاد، وطبقت شهرته الآفاق .

وعلى الرغم من أن الشيخ الرئيس من مواليد قرى (بخارى) وبها تنشأ، إلا أن أصوله فارسية وليست تركية، وكن هذا لا يمنعنا أن نذكره فيمن نبغ من أهل بخارى فقد سكنها آباءه، وبها ولد ونشأ وترعرع، وكانت بخارى عاصمة العلوم - آنذاك .

الشيخ الرئيس ابن سينا؛

أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا، أشهر أطباء المسلمين، على مدار التاريخ وكان كتابه (القانون فى الطب) هو المرجع الطبى الأول والوحيد للأطباء، فى العالم أجمع، لمدة سبعة قرون منقضية، وهو مشهور، عند أهل أوروبا، بإسم (أفيسينا) فقد ترجموا - منذ وقت مبكر - كتبه الطبية والفلسفية، وكان (القانون فى الطب) عمدهم، وعليه كانوا يعلنون، وقد طبع باللاتينية خمس عشرة مرة، ومرة واحدة بالعبرية، فى القرن الخامس عشر الميلادى، وكان مقررا فى جامعة (لوفان) حتى القرن السابع عشر الميلادى .

ولد عام ٣٧٠هـ / ٩٨٠م فى إحدى قرى (بخارى) ونشأ وتعلم فى بخارى وطاف البلاد، وناظر فيها العلماء، واتسعت من قم شهرته، وتقلد الوزارة فى (همدان) ثم حدث أن ثار عليه عسكرها ونهبوا بيته، ففر منهم إلى أصفهان، وبها تفرغ للعلم، وصنف أكثر كتبه وبها كانت وفاته، وله أكثر من مائة مؤلف فى الطب، والفلسفة والمنطق والطبيعات، والألهيات، ومن كتبه المشهورة يعتبر (القانون فى الطب) (الشفاء) وهو يقع فى أربعة أجزاء و(السياسة) و(أسرار الحكومة المشروقة) والأشارات و(الطير) و(أسرار الصلاة) و(لسان العرب) وله رسالة فى علم (الهيئة) وهى علم الطبيعة - اليوم - ورسالة فى (النبات وحيوان) وهو علم (البيولوجى) اليوم (وأسباب الرعد والبرق) وله شعر جيد وأشهر شعره (العينية) التى مطلعها:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

ويقال أن (ابن سينا) كان باطنياً، من أهل دعوة الحاكم بأمر الله الفاطمي، واتهم بأنه كان شيعياً إسماعيلياً.

قال (ابن القيم) عنه: ابن سينا - كما أخبر عن نفسه - هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم، من القرامطة الباطنيين). وهذا باطل وليس صحيح.

وقال (ابن تيمية) عنه: (تكلم ابن سينا في أشياء من الألهيات والنبويات والمعاد والشرائع لم يتكلم بها سلفه، ولا وصلت إليها عقولهم، ولا بلغتها علومهم فإنه

استفادها من المسلمين وإن كان إنما يأخذ عن الملاحدة المنتسبين إلى المسلمين كالإسماعيلية، وكان أهل بيته من أهل دعوتهم من أتباع الحاكم العبيدي الذي كان هو وأهل بيته معروفين عند المسلمين بالإلحاد).

وعلى الرغم من (ابن سينا) كان مهتماً في دينه، إلا أنه كان مجمعا على رئاسته في الطب، وتجلّى لك عبقرية (ابن سينا) الطبية في كتابة (القانون) في الطب، الذي ظل المرجع الأساسي لعلوم الطب، خلال سبعة قرون (أى منذ القرن العاشر الميلادي حتى القرن السابع عشر) وذلك في جميع عواصم العالم المعروفة آنذاك، وكان القانون يترجم إلى اللغات الأوربية، وبخاصة منها الأسبانية: حيث كان الاحتكاك بين الحضارة في الأندلس، وبين سكان أسبانيا المسيحيين على أشده، ومن هناك انتقلت النهضة الأوربية الحديثة كما هو معلوم.

كما أن (القانون) ترجم إلى اللغة اللاتينية، لغة العلم والنهضة، في ذلك الوقت، وعندما ظهرت الطباعة، في أوروبا طبع خمس عشرة مرة باللاتينية، ومرة واحدة باللغة العبرية، خلال ثلاثين سنة فقط، وذلك منذ عام ١٤٧٠ إلى عام ١٥٠٠م، ثم أعيد طبعه عشرات المرات، بكافة اللغات الأوربية.

وسنقل شيئاً (يسيراً) من مقدمة (القانون) بقلم (ابن سينا) حتى تعرف عظمة هذا الرجل، في المجال الطبي، على وجه الخصوص قال - بعد أن حمد الله، وأثنى عليه، وصلى على نبيه محمد - ﷺ:

«وبعد فقد التمس مني بعض خلص إخواني ومن يلزمني إسعافه بما يسمح به وسعى أن أصنف في الطب كتاباً مشتملاً على قوانينه الكلية والجزائية اشتملاً

يجمع إلى الشرح الاختصار وإلى إيفاء الأكثر حقه من البيان الإيجاز، فأسعفته بذلك، ورأيت أن أتكلم - أولاً - فى الأمور العامة الكلية، فى كلا فسمى الطب، أعنى القسم.

النظرى، والقسم العملى، ثم - بعد ذلك - أتكلم فى كليات أحكام قوى الدوية المفردة ثم فى جزئياتها، ثم بعد ذلك فى الأمراض الواقعة بعضو عضو.

«فأبتدىء - أولاً - بتشريح ذلك العضو ومنفعته، وأما تشريح الأعضاء المفردة البسيطة فيكون قد سبق منى ذكره فى الكتاب الأول الكلى، وكذلك منافعها، ثم إذا فرغت من تشريح ذلك العضو - ابتدأت فى أكثر المواضع بالدلالة على كيفية حفظ صحته، ثم دلت بالقول المطلق على كليات أمراضه وأسبابها وطرق الاستدلالات عليها، وطرق معالجتها بالقول الكلى فى حدة وأسبابه ودلائله، ثم تخلصت إلى الأحكام الجزئية، ثم أعطيت القانون الكلى فى المعالجة، ثم نزلت إلى المعالجات الجزئية بدواء دواء بسيط أو مركب، وما كان سلف ذكره من الأدوية المفردة يد فى الجداول، والأصباغ التى أوى استعمالها فيه، كما تقف - أيها المتعلم عليه إذ وصلت إليه لم أكرر إلا قليلا منه . .

«وأما الآن فإنى أجمع هذا الكتاب وأقسمه إلى كتب خمسة، على هذا

المثال:

الكتاب الأول: فى الأمور الكلية فى علم الطب.

الكتاب الثانى: فى الأدوية المفردة.

الكتاب الثالث: فى الأمراض الجزئية الواقعة بأعضاء الأناس عضوا، من

الفرق (قمة الرأس) إلى القدم ظاهرها وباطنها.

الكتاب الرابع: فى الأمراض الجزئية التى إذا وقعت لم تختص بعضو وفى

الزينة.

الكتاب الخامس: فى تركيب الأدوية والأقرباذين.

وقال عن الكتاب الأخير «وهذا الكتاب لا يسع من يدعى هذه الصناعة (أى

الطب) ويكتسب بها أن لا يكون جله معلوما محفوظا عنده، فإنه مشتمل على أقل

ما لا بد منه للطبيب، وأما الزيادة عليه فأمر غير مضبوط، وأن أقر الله تعالى في الآجل، وساعد القدر - انتصبت لذلك انتصابا ثانيا (وقصده أن يضع فيه كتابا آخر متوسعا في علم الأدوية والأقرباديين).

وهكذا قسم (ابن سينا) كتابه المرجع، مثلما تفعل كليات الطب اليوم - فتجعل السنة الأولى والثانية لعلوم التشريح، والسنة الثالثة لعلم الأمراض (الباثولوجى) وعلم الأدوية (الفارماكولوجى) وعلم الميكروبات والطفيليات، ثم جعل السنة الرابعة والخامسة للأمراض الجزئية، مثل أمراض النساء والولادة وأمراض الأنف والأذن والحنجرة وأمراض العيون والأمراض الباطنية والجراحة، الخ

ولم يكتف (ابن سينا) بمعلومات المتقدمين من يونان، وفرنس وعرب، وسريان، وهنود يرتبها ويوبها كأحسن ما يكون الترتيب والتبويب، بل يضيف إليها من ملاحظاته وتجاريه ومشاهداته الكثير الكثير، وفى هذا قال: «ثم تعهدت المرضى وانفتحت على أبواب من المعالجة أكتسبتها من التجربة».

وهكذا ابن سينا يتعلم من مرضاه بمثل ما كان يتعلم من كتب (أبو قراط) و(جالينوس) وكانت له ملاحظات سريرية وتشريحية خاصة به، أضاف بها إلى الطب إضافات كبيرة، مثل وصفه للتجويف البلورى وصفا دقيقا، ووصفه لالتهاب الأغشية السحائية، ووصفه الدقيق لليرقان وأسبابه، واكتشافه علاج الأنيميا الحادة بنخاع العظام، الذى يعتبر اليوم آخر أنواع العلاج الحديثة لمرض الأنيميا الحادة الخطيرة، وحديثه عن أنواع الأورام والسرطانات، وتفصيله البارح لأنواع شلل الوجه واهتمامه الشديد بالأمراض النفسية والعصبية، وتحديثه بتوسع عن المناخوليا والعصاب، وتحديثه عن العشق، بوصفه ظاهرة نفسية، ومعالجتها، وإيراده طرائف وعجائب فى ذلك .

وفى طب العين تحدث عن طبقات العين الثمانية حديث من شرحها، وعرف أجزائها وطبقاتها، وانتقد (أبو قراط) و(جالينوس) حيث اهتم فقط بعدسة العين، بينما انصب اهتمام ابن سينا على الشبكية التى تنطبع عليها الصور المنعكسة، مثلما تنطبع الصورة فى الكاميرا على الفيلم الحساس .

ولم يترك (ابن سينا) بابا من أبواب الطب إلا تحدث فيه حديث خبير عالم واسع التجربة. ولقد تقدم الطب فى العصور الحديثة تقدما واسعا وأصبح الطب القديم متخلفا عنه بمراحل ولكن يبقى مع ذلك لابن سينا فضل سبقه لعصره، وأتيانه بكثير من العجائب والغرائب.

وللأسف فإن كتاب (القانون) فى الطب لم يطبع بالعربية إلا طبعة واحدة رديئة قديمة، بدون تحقيق، ولا تعليق عليها، وقد قامت دور النشر - أخيرا - بإعادة تصويرها (بالأوفست) وذلك لا يجدى فتىلا.

والواجب هو أن يعاد طبع الكتاب، بعد تحقيقه وشرحه والتعليق عليه، إذ أن الطبيب وطالب الطب - اليوم - قد بعد بهم العهد بلغة (ابن سينا) وتحتاج كثير من المسميات إلى توضيحها للأطباء بلغة العصر، مع ذكر ما يقابها من أسماء علمية حديثة، لأن أغلب الأطباء العرب يدرسون - اليوم - الطب بلغات أوروبية.

وقد ترجم (ابن سينا) لنفسه ترجمة وافية، ذكرها (ابن أبى إصبيعة) فى كتابه القيم (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) ونوجز ذلك - ها هنا - ومن أراد المزيد فليرجع إى الكتاب المذكور.

قال عن نفسه أن من مواليد قرية من قرى (بخارى) وأن أباه من (بلخ) فى أفغانستان وأن أمه من أهل (بخارى) وأن الأسرة انتقلت إلى بخارى وهو طفل صغير، وأنه حفظ القرآن الكريم كله، ولم يجاوز العاشرة، وحفظ كثيرا من الشعر والأدب، فى تلك السن الغضة الطرية، وقال أن أباه كان ممن سمع داعى الباطنية من الإسماعيليين، الذين حكموا مصر باسم الفاطميين، ووافق عونهم وكذلك كان أخوه الأكبر محمد وقال (وكانوا ربما تداكروا بينهم وأنا أسمع وأدرك ما يقولونه ولا تتقبله نفسى).

ودرس (ابن سينا) الفقه دراسة واسعة فى صغره، على يد (إسماعيل الزاهد)، وفى هذا القول ما يدل على ابن سينا لم يعتنق الدعوة الباطنية، وأن أعتنقها أبوه وأخوه، وأصف إلى ذلك أن أباه كان قد وجهه - وهو فى تلك السن - إلى تعلم حساب الهند.

ثم قدم (بخارى) رجل يدعى المتفلسف، وهو (أبو عبد الله النائلي) فدرس عليه (ابن سينا) الفلسفة الإغريقية دراسة واسعة، حتى أخرج أستاذه بكثرة مسائله، ولم يكن الأستاذ المتفلسف واسع الفهم، بعيد الإدراك، فقد ضاق بأسئلة تلميذه الذكي، وطلب منه أن يقرأ كتب الهندسة والرياضيات والفلك والهيئة التي كانت جزءا من الفلسفة اليونانية وحده، ثم يعرضها عليه، فقرأها (ابن سينا) ولم يجد عند أستاذه ما يشفى غليله، وتوجه أستاذه إلى كركانج عاصمة إقليم (خوارزم) وبقي (ابن سينا) في (بخارى) يدرس هذه الكتب العويصة، دون استاذ، حتى أجادها، ولم يستعص عليه شيء منها، سوى الإلهيات، فقرأها كما يقول أربعين مرة، حتى حفظها، دون أن يفهمها، فلما وجد كتاب الفارابي الفيلسوف المشهور (وهو من فاراب من مدن قازاستان في تركستان) وجد فيه حلولا لكثير مما أشكل عليه، وكان إذا تحير في مسألة، كما يقول عن نفسه (ترددت إلى الجامع، وصلت وابتهلت إلى مبدع الكل، حتى فتح لي المستغلق، ويسر المتعسر).

ثم دعاه سلطان (بخارى) لمعالجته، فعالجه ن بعد أن فشل الأطباء في مداوته وكان ابن سينا إذ ذاك ابن ستة عشر سنة وطلب الشاب العبقرى من السلطان أن يكون جزاؤه على مداوته هو فتح (المكتبة السلطانية) المليئة بخزان الكتب وله أن يأخذ منها ما يريد لمطلعته، فطالع مختلف العلوم، واستوعبها وقد قال عن هذه المكتبة الضخمة التي تدل على مكانة العلم في بخارى في عهد السامانيين ما يلي:

(فدخلت دارا ذات بيوت كثيرة في كل صناديق كتب منضدة بعضها على البعض).

في بيت كتب علم مفرد.. وطالعت فهرست كتب الأوائل.. وطلبت ما احتجت إليه ورأيت أيضا من بعد.. فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها وعرفت مرتبة كل رجل في علمه).

وقال عن نفسه: (فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري، فرغت من هذه العلوم كلها وكنت إذ ذاك للعلم احفظ، ولكنه اليوم معي أنضج)

وفي هذه السن الغضة ألف كتابا جامعا لهذه العلوم، ألفه في عشرين مجلدا، وأسماه (الحاصل والمحصول) وأنهى منه، وسنة واحد وعشرون عاما،

وكان ذلك الكتاب دائرة معارف كاملة ألفها هذا الشاب العبقرى فى سن الثامنة شعرة وانتهى منها فى سن الواحدة والعشرين .

وصف فى هذا السن - أيضا كتابا فى الأخلاق، اسماه (كتاب البر والإثم) ثم انتقل (ابن سينا) إلى (كركانج) عاصمة (خوارزم) ومنها تنتقل فى مدن (خراسان) وتولى الوزارة فثار عليه الجنود، حتى نهبوا عليه بيته، وطالبوا بقتله، فحماه السلطان وعزله من الوزارة، وتفرغ للتأليف وللطلب، فألف مئات الكتب فى مختلف فروع المعرفة، بحيث لم يترك بابا من أبواب العلوم إلا ولجه، حتى حدث ذات مرة أن أجمع بأبى منصور الجبائى اللغوى، وتكلم ابن سينا فى مسألة من مسائل اللغة، فقال له الجبائى: أنك حكيم فيلسوف، وكذلك لم تقرأ فى اللغة، فامتعض ابن سينا وتفرغ ثلاث سنوات لدراسة اللغة، حتى ألف فيها ثلاثة كتب، وجعلها فى جلد قديم، وأوعز إلى الأمير، وطلب منه أن يبدى رأيه فيها، فنظر فيها (أبو منصور) وأشكل عليه كثير مما فيه فكان (ابن سينا) هو الذى ألفها، فاعتذر له، واعترف له بمكانته العالية فى اللغة، ثم ألف (ابن سينا) كتابه الضخم (لسان العرب) فى عشرة مجلدات فى علوم اللغة العربية .

وقد تأثر (ابن سينا) كغيره من فلاسفة المسلمين بالفلسفة (اليونانية) وعلى الأخص منها فلسفة (أفلاطون) و(أرسطو) و(أفلوطين) وهم مجموعة الفلاسفة الإلهيين من اليونان الذين يؤمنون بأله واحد للكون كله، ولكنهم يجعلونه متفكرا فى ذاته، متعلقا لها، لا يدبر هذا الكون، ولا يصرفه، بل ولا يعلم عنه شيئا - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ونرى تأثر (ابن سينا) فى أواخر حياته بالصوفية، واتصاله بهم، حتى أن وصيته التى ذكرناها طرفا منها لتلميذه وصديقه (أبى سعيد بن أبى الخير الصوفى) تدل على ذلك دلالة واضحة، فهو يأمره باستحضار ذات الله، جلا وعلا، فى كل لحظة من لحظات حياته، وإلى التفكير فى مخلوقاته، والتدبر فى آياته ويأمره بتنزيه الله تعالى ولا يشغل سره إلا بذكره، ولا فكره إلا باجتلاء آياته، ولا يأنس إلا به، ولا يجعل لذاته إلا فيه، ثم يأمره برحمة المخلوقات وبخاصة منهم المؤمنين،

ويأمره بالصلاة والصيام البر والصدقة، واحتمال الأذى، والصبر على المكاره، والبعد عن الرياء والسمعة والعجب، وإخلاص نية، مما نراه في كتب الصوفية والرقائق، مثل كتاب (أحياء علوم الدين) للغزالي، وكتاب (تبيين الغافلين) للسمرقندي، و(عوارف المعارف) للسهروردي (الرسالة القشيرية) وكتب الشيخ عبد القادر الجيلاوي.

وخلاصة القول في هذا العبقري، الذي كان أشهر وأعظم أطباء القرون الوسطى وأوسعهم علما وفلسفة، أنه تحول في أواخر أيامه من الفلسفة إلى الشرع الحنيف والالتزام به بل إلى نوع من الزهد والتصرف أيضا.

وفي أواخر أيام حياته أصيب (ابن سينا) بالقولنج (التهاب الأمعاء الغليظة) واشتد عليه المرض، لتقلبه بين (همدان) و(اصبهان)، وهو مريض وقد ضعفت صحته، وكان يعالج نفسه، فلما رأى أن العلة قد اشتدت به - ترك التداوى - وقال (ابن المدبر الذي في بدني قد عجز عن تدبيره فما بي حاجة للمعالجة).

ويقال أنه اغتسل وتاب، وتصدق بماله على الفقراء، ورد المظالم إلى أهلها، وأعتق ممالئكه، وعكف بقية حياته على قراءة القرآن الكريم، واستمر على هذا الحال حتى توفي بهمدان، في شهر رمضان ٤٢٢هـ (١٠٣٦م) مما تقدم من ترجمة بعض أعلام (بخارى) مثل الإمام البخارى، وأساتذته، وترجمة الشيخ الرئيس (ابن سينا) يتضح لك أن (بخارى) منذ فتحها المسلمون، لأول مرة، على يد عبيد الله بن زياد، في عهد (معاوية) ثم أعادوا افتتاحها على يد (قتيبة بن مسلم الباهلي) سنة ٨٦هـ، أصبحت عاصمة من عواصم الحضارة الإسلامية، تشع بنورها في الأفاق، بل لا نعدو الحقيقة أن قلنا أن (بخارى).

أصبحت تضارع (نيسابور) و(بغداد) و(مرو) و(دمشق) و(القيروان) و(القاهرة) و(أشبيلية) و(غرناطة)، وفي بعض فترات التاريخ كانت (بخارى) تفوقها حضارة وعلما وأدبا وتجارة وصناعة، وكانت تعرف باسم (بخارى الشريفة النقية) ذكر ذلك المستشرق المجري (فامبري) في كتابه (تاريخ بخارى).

وقد كانت (بخارى) إحدى عواصم بلاد ما وراء النهر، منذ أن فتحت، استمرت على ذلك أيام الأمويين والعباسيين، وفي أيام المأمون - استقل (طاهر بن

حسين) قائد (المأمون) بحكم (خراسان) وما وراء النهر، وبقيت في أولاده، ثم ظهرت الدولة السامانية، وكانت عاصمتها (بخارى) فارتقت في عهدهم، وازدهرت ازدهارا كبيرا واستمرت على ذلك في أيام الغزنويين، الذين كانت عاصمتهم (غزنة) في أفغانستان اليوم.

صم جاء المغول كالإعصار المدمر، الذي لا يبقى على شيء، فحطم (بخارى) و(سمرقند) و(غزنة) واستمر الإعصار المدمر والظوفان المغولي، حتى أغرق بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية آنذاك في بحور الدماء على يد هولوكو. ثم انحسر الظوفان في عين جالوت، وانهزم المغول على يد السلطان (قطز) وقائده الظاهر بيبرس وعادت أمجاد الإسلام وظهرت دولة السلاجقة، ثم ظهر (تيمور لنك) فجعل قاعدة ملكه (سمرقند) أصبحت عاصمة العالم المعروف - آنذاك - وتوارث (بخارى) قليلا، لتعود بعد انتهاء حكم (تيمور لنك) في عهد الشيبانيين والاشتراخانيين.

وفي القرن الثامن عشر تفككت تلك الدولة، واستقل كل أمير بمنطقة، ودعيت (خانية) فكانت هناك (خانية بخارى) و(خانية خوقند) و(خانية خوارزم) التي أصبحت تسمى (خيوه) وكانت أكبر هذه الخانيات (خانية بخارى) التي استمرت تقاوم الغزو الروسي القيصرى، ولم تسقط مثلما سقطت بقية لخانيات.

إلا في عام ١٩٢٢م، عندما هجم عليها الجيش الروس الأحمر بثمانين ألف جندي مسلحين بأحدث الأسلحة، فاحتلوها بعد أن قتلوا أنور باشا قائد جيشها الصغير.

وقد ذكر المستشرق المجرى (ارمينوس فامبرى) صاحب كتاب (تاريخ بخارى) الذى ألفه عام ١٨٧٢م أن (خانية بخارى) كانت على جانب لا بأس به من الحضارة، وأن كان قد دب إليه الاضمحلال وكانت هذه الخانية كما ذكر تشمل:

١ - (بخارى) وضواحيها.

٢ - قضاء (بخارى).

٣ - (ميان كل) وقصبتها (كرمينية).

٤ - (كته كورغان).

٥ - (حصار) مع (شير آباد).

٦ - (سمرقند) وما حوالها من مدن وقرى.

٧ - (قارش) مع (فيض آباد).

٨ - (جهار جوى).

٩ - (قراقول).

وكانت هذه المناطق سابقا تدعى بالصغد، ويمر فيها نهر يعرف بنهر الصغد، ويسمى الآن (زرفشان).

وظهر من المدن والقرى المحيطة ببخارى والتابعة لها كثير من العلماء والأفذاذ، ومن ذلك مدينة (بيكند) ثانى مدن (بخارى) التجارية والتي تبعد عن بخارى بأربعة وأربعين كيلو مترا، وتقع على طريق (أمل) ومرو والتي كانت ذات ثراء واسع.

فى هذه المدينة ظهر المحدث (محمد بن سلام البيكندى) أستاذ الإمام (البخارى) وصاحب المصنفات العديدة، فى علوم الحديث، (ولد سنة ١٦٠هـ - وتوفى سنة ٢٢٥هـ ومنها ظهر المحدث (أبو الفضل أحمد بن على بن عمرو بن على السليمانى البيكندى) الذى عد محدث عصره (توفى سنة ٤١٢هـ / ١٠٢١م) وله أكثر من أربعمائة ومصنف، أغلبها فى علوم الحديث. . ومنها - أيضا - ظهر (محمد أحمد البيكندى) أحد علماء الكلام، الذين عرفوا بالاعتزال، وتولى القضاء فى حلب، ثم دخل بغداد، وتوفى بها ٨٤٢هـ / ١٠٨٩م وله مؤلفات، منها (الهدى والرشاد) (وتحقيق الرسالة بأوضح الدلالة) (والرسالة المسعودية) وغيرها. .

وفيما يلى - إن شاء الله - سنتناول بالحديث مدينة (سمرقند) ومن ظهر بها من العلماء الأفذاذ، وفحول الرجال.

سمرقند:

ومن بين المشاهد والمزارات فى سمرقند أحتل مكان الصدارة على الدوام قبر قثم ابن العباس ابن عم رسول الله ﷺ الذى جاء إلى سمرقند عام

٥٥هـ/ ٦٧٥م مع سعيد بن عثمان بن عفان والذي استشهد اثناء فتحها، وهو المزار المعروف باسم مزار زنده (الأمير أو السلطان الحى).

ومنذ ذلك الحين كان ذوو المكانة فى المجتمع من الحكام والعلماء والأولياء يقبرون بجوار ذلك القبر الشريف، وقامت حوله مدرسة لتدريس العلوم الدينية، وقد وصفه ابن بطوطة قال: «وبخارج سمرقند قبر قثم بن العباسين عبد المطلب رضى الله عن العباس وعن ابنه وهو المستشهد حين فتحها، ويخرج أهل سمرقند كل ليلة اثنين وجمعة إلى زيارته والتر يأتون وينذرون له النذور العظيمة ويأتون إليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير فيصرف ذلك فى النفقة على الوارد وعلى الصادر ولخادم الزاوية.

وعليه قبة قائمة على أربع أرجل ومع كل رجل ساريتنا من الرخام الخضر والسود والبيض، وحيطان القبة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب وسقفها مصنوع بالرصاص، وعلى القبر خشب الأبنوس المرصع مكسو الأركان بالفضة وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة وفرش القبة بالصوف والقطن، وخارجها نهر كبير يشق الزاوية التى هناك وعلى حافتيه الأشجار ودوالى العنب والياسمين وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر.

وكان يتبع ولاية سمرقند اثنا عشر رستاقا ستة منها جنوبى نهر زرقشان (أى نهر الصغد) وستة شمال النهر، ولكها مناطق زراعية خصبة وكان طول الرستاق الواحد مرحلتين وتمتد مساحة قره نحو فرسخين، وكانت لمعظم الرساتيق قنوات من النهر لسقايتها بانتظام واشتهرت هذه الرساتيق بمختلف أشجار الفاكهة وإنتاج اللوز والجوز.

وكانت بعض هذه الرساتيق مركزا لتجمع بعض القبائل العربية فقد نزل (أبو مزاحم سباع بن النضر) من قبيلة بكر بن وائل فى مدينة وذار وبنى بها مسجدا جامعا فى القرن الثالث الهجرى، وتكاثر أولاده بها حتى أصبحت معروفة بهم، وفى وذار حوقل كثيرا، أما الطريق التى تصل بين سمرقند وبخارى التى تعرف باسم (الطريق الملكى) فقد كانت على الدوام ذات اهمية كبرى وتبلغ ٣٧ فرسخا وتقع على هذا الطريق مجموعة من القرى والمدن مثل (دبوسية وكرمينية

وطواويس) وقد أخذت طواويس اسمها العربى سنة ٩١هـ / ٧١٠م عندما أبصر العرب الطواويس المنتشرة فى هذه القرية، أما الاسم القديم فهو ارفود الذى كان به معبد للنار فأبدله المسلمون بمسجد جامع، قد ذكر بارتولد أسماء عشرات القرى والمدن الصغيرة التابعة لسمرقند ومنها قرية خرتنك التى بها قبر الإمام محمد ابن إسماعيل البخارى صاحب الجامع الصحيح.

وقد نبغ من (سمرقند) على مدار التاريخ الإسلامى كثير من العلماء والأدباء منهم (محمد بن عدى بن الفضل) «أبو صالح» السمرقندى نزيل مصر المحدث.

المشهور، سمع من محدثى عصره فى دمشق ومصر وغيرها، وسمع منه جم عفير من العلماء، ومات عام ٤٤٤هـ / ١٠٥٢ م ومنهم (أبو بكر أحمد بن عمر بن الأشعث السمرقندى) سكن دمشق مدة، وكان يكتب بها المصاحف من حفظه واشتهر بقراءته للقرآن وتعليمه إياه، وسمع من محدثى دمشق، وسمع منه جماعة، وتوفى سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٦ م ومنهم (أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندى) أمام الهدى العلامة، من أئمة الحنفية، ومن الزهاد المتصوفين له تصانيف نفيسة، مثل (تفسير القرآن الكريم) و(عمدة العقائد) و(بستان العارفين) وهو فى التصوف و(تنبيه الغافلين) فى المواعظ و(خزائن الفقه فى الفقه) و(شرح الجامع الصغير) فى الفقه أيضا و(عيون المسائل) وهو مجموعة فتاوى فقهية و(النوازل من الفتاوى) و(دقائق الأخبار فى بيان أهل الجنة والنار) و(مختلف الرواية فى الخلافات بين الأئمة أبى حنيفة ومالك والشافعى) و(الرسالة فى أصول الدين) وكانت وفاته سنة ٣٧٣هـ / ٩٨٣ م.

ومنهم (شمس الدين السمرقندى) فيلسوف وأديب، ألف رسالة فى آداب البحث المعروفة بآداب السمرقندى، وهى توضح كيفية البحث والمناظرة (وقسطن الميزان) فى المنطق توفى سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١ م ومنهم (أبو القاسم السمرقندى) توفى سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١ م وهو (محمد بن يوسف بن محمد العلوى الحسنى السمرقندى) فقيه حنفى، وعالم بالتفسير والحديث والوعظ، من أهل سمرقند، حج سنة ٥٤٢هـ وأقام عند عودته ببغداد، ومات بسمرقند، له تصانيف كثيرة منه (الفقه النافع) و(جامع الفتاوى) و(الملتقط) فى الفتاوى الحنفية و(بلوغ الأرب من تحقيق استعارات العرب و(رياضة الأخلاق) و(مصايح السب) فى فروع الحنفية،

ومنهم (نجيب الدين السمرقندى) عالم بالطب، استشهد في هراة (في أفغانستان اليوم) لما دخلها التتار، من كتبه (النجيبات) في الطب (والأسباب والعلامات) في الطب - أيضا - و(أصول تركيب المفاصل) و(مقالة في كيفية تركيب طبقات العين) و(أغذية المرضى) و(الأغذية والأشربة للأصحاء) و(الصناعة) المقصود الطبية و(غاية الأغراض في معالجة الأمراض) ومنهم (محمد بن أحمد السمرقندى) توفى ٥٧٥ هـ / ١١٨٠ م من أهل سمرقند فقيه حنفى، من كتبه (تحفى الفقراء فى الفروع، ومنهم (علاء الدين السمرقندى) توفى سنة ١١٤٥ م فقيه مشهور، له كثير من الفتاوى وله كتاب (تحفة الفقهاء اشتهرت معه ابنته (فاطمة) وكانت فتاواه تخرج وعليها خط (فاطمة) وخط أبيها ومنهم (علاء الدين السمرقندى) مولده سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م وفاته ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م وهو (محمد بن عبد الحميد بن الحسن الأسمندى السمرقندى) و(أسمند) إحدى قرى (سمرقند) وهو فقيه حنفى مناظر من فرسان الكلام رحل إلى بغداد، وناظر علماءها واشتهر هناك، وله عدة كتب، منها (مختلف الرواية)

فى الفقه، و(التعليقة) فى القه أيضاً - وبذل (النظر) فى أصول الفقه، (والهداية) فى أصول الأعتقاد، وله تفسير للقرآن الكريم ومنهم (أبو محمد الحسن بن أحمد السمرقندى) إمام زمانه فى الحديث، ولد فى (سمرقند) سنة ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م، واستوطن (نيسابور)، وله (بحر الأسانيد فى صحاح المسانيد) جمع فيه مائة ألف حديث قال عنه (الذهبي) لم يقع فى الإسلام مثله) وتوفى سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م ومنهم (أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماترىدى) وهو من أئمة علم الكلام والعقائد وهو عند الأحناف بمنزلة (أبى الحسن الأشعري) عند الشافعية، فقيه حنفى متكلم، رد على القرامطة والمعتزلة وألف فى ذلك كتاب كثيرة منها (أوهام المعتزلة) (الرد على القرامطة) وكتاب (التوحيد) و(مآخذ الشرائع) فى أصول الفقه، وكتاب (الجدل) وكتاب وشرح كتاب الفقه الأكبر، المنسوب للإمام (أبو حنيفة نسب إلى «ما تريد») وهى محلة (حى) بسمرقند محدث ومؤرخ شهور، له تصانيف كثيرة، منها تاريخ سمرقند وتاريخ (استر آباد) وهى موطن أبيه، وهى أيضا من بلاد ما وراء النهر، توفى سنة ٤٠٥ هـ / ١٠٦٨ م وله شرح الجامع الكبير و(التنف) فى الفتاوى.

وقد اشتهر من الأطباء الذين ينتسبون إلى (سمرقند) (بدر الدين محمد بن بهرام بن محمد القلانسي السمرقندي) الذي قال عنه (ابن أبي أصيبعة) في كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) مجيد في صناعة الطب، وله عناية بالنظر في معالجات الأمراض ومداواتها، وله من الكتب: كتاب الأقرباذين، وهو تسعة وأربعون بابا استوعب فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأدوية المركبة.

ومنهم (نجيب الدين محمد بن علي بن عمر السمرقندي) المتقدم ترجمته، والذي قال عنه (ابن أبي أصيبعة) طبيب فاضل بارع، وله كتب جليلة، وتصانيف مشهورة، وليس المقصود هو التنويه بسمرقند وأشهر من أنجبتهم من العلماء والأطباء على مدار التاريخ.

ومن أهل سمرقند الإمام عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بهرام التميمي بالولاء الدارمي السمرقندي (الدارمي إلى درام بن مالك بطن كبير من تميم أحد أعلام الحديث وحفاظه صاحب سنن الدرامي المشهورة، انتقل في البلدان لطلب علم الحديث فسمع من مشايخ هذا العم في خراسان والعراق والحجاز والشام ومصر ثم عاد إلى سمرقند وولى القضاء بعد أن حاول أن يمتنع من ذلك، واستقال بعد أول قضية تعرض عليه، ونحن نعلم كيف كان علماء هذه الأمة الأخيار ينفرون من ولاية القضاء فقد سجن (الإمام أو حنيفة) وضرب ليتولى القضاء للمنصور العباسي،

ورفض ذلك رفضا باتا، كما رفض أحيانا في شئون القضاء، وكان بعض هؤلاء العلماء يرى الخلفاء وهو لا يعداؤون في أموال المسلمين ويجعلون الفئ مغنما ويحتجزونه لأنفسهم ولولائهم وأنصارهم من دون الأمة فيرون أن تولى القضاء لهم موافقة لهم على ظلمهم، فلذا ينفرون من الحكام والخلفاء ويبتعدون عن أبواب السلاطين رغم ما كان عليه كثير من هؤلاء الحكام من صلاح ظاهر.

وكان الإمام الدارمي أحد هؤلاء العلماء الذين ينفرون من تولى القضاء ويتفرغون لنشر العلم وتدريسه، فكان أحد أعلام علم الحديث في عصره (ولد سنة ١٨١ هـ وتوفي سنة ٢٥٥ هـ بمرور أي ٧٩٧ وتوفي ٨٦٩ م له (المسند) في الحديث) (الجامع الصحيح) المشهور باسم سنن الدارمي وكتاب (التفسير) القرآن الكريم.

علماء نسف

يقول ياقوت الحموى: (نسف) بفتح أوله وثانيه هى مدينة كبيرة كثيرة الأهل والرساق بين جيغيون وسمرقند، خرج منها كثير من أهل العلم فى كل فن، وهى نخشب نفسها.

«قال الأصطخرى: وأما (نسف) فإنها مدينة، ولها قهندر (لفظ قهندز فارسى، ومعناه القعلة القديمة، وأختص بقلاع المدن) وربض (ضاحية) ولها أبواب أربعة، وهى على مدرج (طريق) بخارى وبلخ، وهى فى مستواه، والجبال منها على مرحلتين فيما يلى كش وأما بينها وبين جيجون فمفازة لا جبل فيها، ولها نهر واحد يجرى فى وسط المدينة وهى مجمع مياه كش، فيصير منها هذا النهر، فيشرع إلى القرى، ودار الأمانة على شط هذا النهر بمكان يعرف برأس القنطرة... ولنسف قرى كثيرة ونواح، ولها منبران سوى المدينة، والغالب على قراها المباحس، وليس بنسف ورسايقها نهر جار غير هذا النهر (نهر كشكادريا) وينقطع فى بعض السنة، ولها آبار تسقى بساتينهم ومباقلهم، والغالب على نسف الخصب» وقد ذكر بارتولد فى كتابه التركستان نفلا عن السمعانى وياقوت والمقدسى أسماء عشرات القرى التابعة لنسف.

مما تقدم من وصف (ياقوت الحموى) يبدو أن (نسف) تقع اليوم - فى أوزبكستان جنوب (بخارى) فى الطريق إلى بلخ وبلخ فى أفغانستان وبينها وبين نهر جيجون (أموداريا) مفازة هى - كما تبدو - جزء من صحراء (قره قوم) التى تمتد من حدود «وزبكستان» الشرقية إلى (تركمنستان) وقد خرب المغول نسف مثلما خربوا معظم المدن التى استولوا عليها ثم قامت باسم قرشى التى تعنى القصر بلغة المغول. وذلك لأن الخان كبك وهو من سلالة جغتاي ابن جنكيز خان بنى قصرا قريبا منها فى الإسلام وأصبحوا من حماته بعد أن كانوا ألد أعدائه.

وكم من مدن إسلامية اندثرت أو تغيرت أسماءها ومعالمها فى المناطق، التى ترزخ تحت الاستعمار الروسى... وقد ظهر من (نسف) العديد من الجهابذة العلماء. منهم: أبو إسحاق إبراهيم بن معقل بن الحجاج النسفى:

قال عنه ياقوت: كان من أجلة العلماء وأصحاب الحديث الثقات كتب

الكثير، وجمع السنة والتفسير، وحدث عن، قتيبة بن سعد وهشام ابن عامر
الدمشقي وحرملة بن يحيى المصرى وروى عنه كثير من العلماء ومات سنة
٢٩٤هـ/٦٠٦م.

ومنهم: الحسين بن خضر النسفى، أحد فقهاء الأحناف المشهورين:

تولى القضاء فى بخارى ونواحيها، وبها توفى سنة ٤٢٤هـ / ١٠٣٣م له
مؤلفات عدة منها (الفوائد) و(الفتاوى) وجميعها فى الفقه.

وظهر من نسف: أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفى:

المفسر، الفقيه، المشهور، صاحب المؤلفات الجليلة، والمصنفات العجيبة،
مثل (مدارك التنزيل) فى تفسير القرآن الكريم، و(المنار) فى أصول الفقه، و(كشف
الأسرار شرح المنار) والوافى فى الفروع، (الكافى شرح الوافى) و(عمدة العقائد فى
العقائد) و(كنز الدقائق فى الفقه) و(المصطفى) شرح منظومة أبى حفص النسفى فى
الخلاف.

وتوفى الأمام أبو البركات سنة ٧١٠هـ / ١٣١٠م بعد أن ترك ثروة علمية لا
يزال ينتفع بها إلى يومنا هذا.

ومنهم: أبو الفضل برهان الدين محمد بن محمد النسفى، أحد أعلام
التفسير والأصول والكلام.

فقيه حنفى ولد سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م، فى (نسف) وانتقل منها فى طلب
العلم وسكن (بغداد) وبها ظهر فضله وعلمه، وبها توفى سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٩م،
بعد أن ترك مجموعة من المؤلفات فى التفسير والأصول وعلم الكلام، منها
(الواضح) فى تلخيص تفسير الفخر اتلرازى المسمى بالتفسير الكبير، ومنها
(الفصول) فى علم الجدل و(منشأ النظر) فى علم الخلاف، و(المقدمة النسفية)،
أيضا، فى علم الخلاف، و(القوادح الجدلية) و(شرح الأسماء الحسنى) و(كتاب دفع
النصوص والنقود).

ومنهم: خرج الحافظ عبد العزيز بن محمد بن عاصم النسفى النخشى:

ونسب إلى (نخشب) وهى (نسف) كما تقدم وصفه (ياقوت) بأنه أحد
الأئمة فى الحديث.

سمع أبا القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عمر، وأبا القاسم علي ابن محمد الصحاف، وأبا طاهر محمد بن محمد بن عبد الرحيم الكاتب الأصبهاني، وغيرهم كثير من مشايخ الحديث فى عصرهم، وتنتقل فى البلدان، طلبا للحديث، ولعلو السند، كما يفعل مشايخ هذا العلم لا يألون فى ذلك جهدا ولا يدخرون فى ذلك وسعا، والأمة الإسلامية تعينهم على ذلك، ينتقلون من (نصف) أو (بخارى) إلى (سمرقند) و(مرو) و(نيسابور) و(بغداد) و(دمشق) و(مكة) و(المدينة) وكأنهم فى بلدهم لم يفارقونها، ففى كل مدينة يجدون أهلا وأحبابا، ويلقون بشاشة وترحابا لا يصددهم صاد، ولا تطارددهم جوازات واقامات، بل هى دار الإسلام، دار واحدة ممتدة، أينما ذهب وجد أخوة وأحبابا، ووجد شيوخا وطلابا.

قدم الحافظ عبد العزيز بن محمد النسفى إلى دمشق واستقر بها، وروى عنه خلق كثير منهم: عبد العزيز الكتانى، وأبو بكر الخطيب، ثم عاد الحافظ عبد العزيز إلى موطنه (نصف) (نخشب) وبها مات، ولما يبلغ الأربعين، وذلك سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م.

ومنهم: أبو العباس جعفر بن محمد المعتز المستغفرى النسفى:

ولد فى نصف سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م وبها كانت وفاته سنة ٤٣٢هـ / ١٠٤١م خطيب نصف وأمامها. . فقيه ومحدث ومؤرخ. . وأما فى الخطابة فقد كان لا يبارى. . وله مصنفات كثيرة منها كتاب «الدعوات» جمع فيها الأحاديث الواردة فى الدعاء وكتاب فضائل القرآن «الشمائل والدلائل ومعرفة الصحابة الأوائل» «والمسلسلات».

وهى أيضا فى الحديث. . وله كتاب «الزادات» وهى زيادات أضافها على كتاب «المختلف والمؤتلف» لعبد الغنى بن سعيد، وله فى التاريخ عدة كتب منها «تاريخ نصف» وتاريخ كش. . . .

ويؤخذ عليه أنه يروى أحيانا بعض الأحاديث الموضوعة من غير أن يبين حالها.

علماء بيهق:

تقع بيهق على المجرى الأسفل هارى (هارى رد) وكان يسمى نهر الروذ لأن مرو الروذ تقع عليه. الذى ينبع من جبال أفغانستان والذى يشكل الحدود بين إيران وتركمنستان. فإذا دخل نهر هارى تركمنستان تغير اسمه إلى تادزهن وهنا يجد رافدا من مشهد فى إيران (وهى مدينة طوس القديمة وسميت مشهد لأن بها مشهد إمام على الرضا).

وتقع بيهق فى الجزء الواقع فى تركمنستان السوفيتية حيث تزول مياه النهر إلا عند اشتداد الأمطار وفيضان النهر.

وهى غير موجودة اليوم فقد اندثرت تلك المدينة التى وصفها (ياقوت الحموى) فى معجم البلدان بقوله:

بيهق أصلها بالفارسية بيهة ومعناها (الأجود) وهى ناحية كبيرة وكورة واسعة كثيرة البلدان والعمارة من نواحي نيسابور تشمل على ٣٢١ قرية بين نيسابور وقومس وجوين بين أول حدودها ونيسابور ستون فرسخا وكانت قصبته خسر وجرى ثم صارت سبزوار. . . وقد أخرجت هذه الكورة من لا يحصى من الفضلاء والعلماء والفقهاء والأدباء. . . ومن أشهر أئمتهم:

١ - الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن على بن عبد الله بن موسى البيهقى:

من أهل خسر وجرى عاصمة بيهق، صاحب التصانيف المشهورة ولد سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤م وهو الإمام الحافظ المحدث الفقيه الورع من أجل أصحاب أبى عبد الله الحاكم والمكثرين عنه - ثم فاقه فى فنون من العلم تفرد بها.

رحل إلى العراق وطوف فى الأفاق وألف من الكتب ما يبلغ قريبا من ألف جزء مما لم يسبق إلى مثله. توفى فى نيسابور سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦م ونقل جثمانه إلى بيهق حيث دفن بها، صنف زهاء ألف مصنف ومن تصانيفه كتاب (المبسوط) وكتاب (دلائل النبوة) وكتاب (مناقب الشافعى) وكتاب (البعث والنشور). وهو

أول من جمع نصوص الشافعي في عشرة مجلدات. وكتاب الأداب وكتاب فضائل الصحابة وكتاب فضائل الأوقات وشعب الإيمان وغيرها كثير لا يحصى. قال عنه إمام الحرمين: ما من شافعي إلا وللشافعي عليه منه إلا البيهقي فإن له المنة والفضل على الشافعي لكثرة تصانيفه في نصرته مذهبه وبسط موجزه وتأيد آراءه. وقال عنه الذهبي: لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهبا يجتهد فيه لكان قادرا على ذلك لسعة علومه ومعرفته بالاختلاف.

ومن نبغ من يبهق على بن الحسين بن فطيمة البيهقي:

من أهل خسر وجرّد قصبة يبهق من تلاميذ الإمام أبو بكر أحمد بن حسين المتقدم ذكره وقد حرص على طلب العلم وحفظ رغم تقدم سنه فلما أصيبت يده في علة فقطعت أصابعه فكان يكتب بأصابع قدمه كتابة واضحة مقروءة. تولى القضاء في خسر وجرّد وبها كانت وفاته سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م - وكان مولده سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م. ومن ينسب إليها: إسماعيل بن الحسين بن عبد الله البيهقي.

فقيه حنفي زاهد له عدة كتب في الفقه الحنفي توفي سنة ٤٠٢هـ / ١٠١١م. له الشامل في فروع الحنفية والكفاية مختصر شرح القدوري.

ومن ينسب إليها: أحمد بن علي بن محمد البيهقي (أبو جعفر)

لغوى عالم بالقراءات له (المحيط بلغات القرآن) و(تاج المصادر) توفي سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م ومنها علي بن زيد بن محمد بن الحسين البيهقي مؤرخ وفقيه وفلكي ورياضي وفيلسوف وباحث موسوعي صنف ٧٤ كتابا وتوفي سنة ٥٤٣هـ / ١١٣٨م ومنها محمد بن الحين البيهقي (أبو الفضل) كان كاتب الأبناء في عهد السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي... جميل الأسلوب له مؤلفات في التاريخ وكانت وفاته سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م.

دور علماء خوارزم في نشر الإسلام:

وكانت (خوارزم) تتصل بجهاتها الشمالية الغربية بسهولة (الاستيس) حيث كانت تعيش قبائل (البلغار) و(الخزر) في حوض نهر (الفلوجا) واتصل بنهم أهل خوارزم وأقاموا المستعمرات الإسلامية، ونشروا الإسلام بين (بلغار الفولجا) وهم يتصلون بروابط قوية مع (بغار نهر الطونة) «الدانوب» الذين كونوا مملكة (بلغاريا)

القوية (المجر) فى الغرب، وكان الروس وهم من القبائل النورماندية القادمة من السويد، لا يزالون على بداوتهم وكان هجومهم على حوض نهر الفولجا دافعا للسلب والنهب، ولكنهم أخيرا - أستوطنوا تلك المناطق، وانصهروا فى العنصر الصقلى البلغارى، وتحولوا إلى المسيحية الأرثوذكسية التى كانت عاصمتها (القسطنطينية) (اسلامبول أو أسطمبول بعد أن دخلها محمد الفاتح) وأصبحوا يشكلون سدا فى وجه انتشار الإسلام ن الذى دخل بواسطة أهل خوارزم إلى بلاد (الخزر) طلب أهل (الخزر) العون من أهل (خوارزم) فاشترط عليهم الخوارزميون أن يسلموا، فأسلموا، وأنقذوهم من غزو الروس الإجلاف، وذلك عام ٣٦٥هـ / ٩٦٥ م، كما كان لسلاطين (خوارزم) الذين كانوا يدعون بالخانات أثر عظيم فى نشر الإسلام، فى مناطق الخزر، وقد توجه السلطان (مأمون بن محمد) من (الجرجانية) «كركانج» إلى بلاد (الخزر) ونشر فيها الإسلام.

وكان سكان (الخزر) يدينون بديانات مختلفة، ولكن السيطرة والحكم كانا لليهود، وكان دخول اليهودية إلى (الخزر) آخر صفحات التبشير بالدين اليهودى، الذى تحول - بعد ذلك - إلى دين قومى لجماعة من الناس، تدعى بأنها من نسل يعقوب - عليه السلام - وبما أن اليهودية انتشرت فى شعوب كثيرة، من قبل، منهم أهل اليمن والأحباش، وأخرهم (الخزر) فإن الرغم بأن اليهود هم - فقط - من نسل يعقوب أمر لا يقره التاريخ مطلقا.

وكان ملك (الخزر) فى عهد (هارون الرشيد) يهوديا على الرغم من أن كثيرا من رعاياه قد تحولوا - فعلا - إلى الإسلام، بواسطة الدعاة إلى الله وبخاصة من أهل خوارزم.

وكانت نصرة أهل (خوارزم) لسكان (الخزر) عندما هاجمهم الروس عام ٣٦٥هـ / ٩٦٥ م هى الحلقة الأخيرة فى قصة إسلام سكان الخزر (طواعية).

ولهذا يغزو الفضل فى إنتشار الإسلام فى هذه المناطق إلى الخوارزميين. وقد قامت فى (خوارزم) دولة قوية امتد سلطانها ونفوذها، بعد أن ضعفت الدولة السامانية ولكن هذه الدولة القوية اعتراها الترف والضعف - بعد ذلك - فهاجمها (جنكيز خان) على الملك، فقامت دولهم المجزأة التى استطاع أن يقضى عليها (تيمور لنك).

وقد كان للخوارزميين - أيضا - فضل انتشار الإسلام في جيران الخزر وهو (بلغار الفولجا) وقد سجل التاريخ أن وفدا من مسلمي (البلغار) انطلقوا إلى بغداد، على عهد الخليفة العباسي (المقتدر) سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١م وطلبوا من الخليفة أن يرسل لهم العلماء لتعليمهم الإسلام، كما طلبوا منه أن يرسل لهم مجموعة من الخبراء العسكريين ليبنوا لهم القلاع والاستحكامات العسكرية، حتى يصدروا غزوات الروس الهمج.

وكان ممن أرسلهم الخليفة (المقتدر) العالم (ابن فضلان) الذي دون رحلته تلك ونقل عنها (ياقوت الحموي) في كتابه القيم (معجم البلدان) وفي أوائل القرن العشرين وجدت نسخة من رحلة (ابن فضلان) في مكتبة (مشهد) بعد أن عدت من المفقودات وكان خط سير الرحلة من بغداد إلى (بخارى) ثم إلى (خوارزم) ثم إلى بلاد (البلغار)، دليلا على خط سير انتشار الإسلام، الذي انتشر مدن - أولا - في مدن العراق إلى خراسان، ثم إلى بخارى وخوارزم، ثم إلى بلاد البلغار.

وقد وصفهم (ابن فضلان) في رحلته بأنهم من الصقالبة، وإن كان الباحثون المحدثون يرون أنهم نتيجة اختلاط الصقالبة بالأتراك وبخاصة منهم الخوارزميون، الذين كلن لهم الفضل الأول في نشر الإسلام بينهم.

وقد سيطر (البلغار) المسلمون على مناطق واسعة من (ديليكي استوك) إلى جنوب (ساراتوف) ومن (موروم) إلى (أوفا) وبذلك كان تهر (الفولجا) بأكمله تحت سيطرة (البلغار) المسلمين، واستمرت دولتهم من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) على القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، عندما ابتدأوا في التحول إلى إمارات متعددة مختلفة.

بدأ الروس بعد ذلك - في الاستيلاء على مناطق منها، حتى جاء (تيمور لنك) فأخضعها جميعا لسلطانه، وانتشرت في (البلغار) اللغة التركية التي تكتب بالحرف العربي.

وقد ذكر (بارثولد) في كتابه (تاريخ الترك في آسيا الوسطى) أن أنتشار الإسلام بين القبائل التركية الدوية، ثم انتشاره - بعد ذلك - في الخزر، وبلاد البلغار، إنما كان يتم - أساسا - على يد الدعاة إلى الله من الصوفية، الذين كانوا

ينطلقون إلى كل مكان لينشروا دعوة الله بكل حماس وإخلاص وتجرد، وكانت حياتهم البسيطة وزهدهم وحرارة إيمانهم وإخلاصهم للإسلام، كل ذلك يجذب كثيرا من الأقباط الذين كانوا يذهبون إليهم، لنشر الإسلام فيهم.

وقد ذكر من ذلك (بارثولد) في كتابه (تاريخ الترك في آسيا الوسطى) أن انتشار الإسلام بين القبائل التركية البدوية، ثم انتشاره - بعد ذلك - في الخزر، وبلاد البلغار، إنما كان يتم - أساسا - على يد الدعاة إلى الله من الصوفية، الذين كانوا ينطلقون إلى كل مكان لينشروا دعوة الله بكل حماس وإخلاص وتجرد، وكانت حياتهم البسيطة وزهدهم وحرارة إيمانهم وإخلاصهم للإسلام، كل ذلك يجذب كثيرا من الأقباط الذين كانوا يذهبون إليهم، لنشر الإسلام فيهم.

وقد ذكر من ذلك قصة إسلام جماعة من الترك الجفأة الذين يعيشون حياة البدارة، في سهوب (القرغيز) وغيرها عندما أسلم (ساتوق يغراجان)، وأسلم معه مائتا ألف أسرة (كانت في الخيام) وذلك على يد جماعة من الدعاة إلى الله من المتصوفة، ومن أهل (خوارزم) وغيرها من المناطق المجاورة.

وقد كان يطلق على (بغراجان) لقت (قاراحان) وهو (سلطان) دولة القاراخين التي وصفها محمود الكاشغري (نسبة إلى كاشغر في تركستان الشرقية) وكان دخول القاراخين في الإسلام عام ٣٢٣هـ / ٩٤٣م انتصارا عظيما للإسلام، حيث دخل مليون شخص في فترة وجيزة في الإسلام طائعين، على يد هؤلاء الدعاة، من الصوفية، وأنهم أدخلوا شعبين كاملين إلى الإسلام هما شعب (بلغار الفولجا) وشعب (القارخين) في تركستان الشرقية (كاشغر وما حولها).

وقد أسلم قسم كبير من قبائل (الغز) الذين كانوا مقيمين عند مصب نهر سيحون (سرداريا) وذلك - أيضا - بفضل الدعاة إلى الله من الخوارزميين وغيرهم.

وبذلك سجل الإسلام انتصارا عظيما، بدخول شعبين من شعوب الأتراك، وهما (الشعب القراخاني) و(الشعب الغزي) إلى الإسلام (في القرن العاشر الميلادي) وكان للخوارزميين، في ذلك كله، جهد مبارك وفضل عظيم، بالإضافة إلى نجاحهم في نشر الإسلام لدى (بلغار الفولجا) و(الخزر).

وفى العصر الحديث تحولت التركستان إلى خانيات صغيرة وكانت خوارزم إحدى هذه الخانيات، وأصبح إسمها خيوة، وقد سقطت هذه الخانية فى يد الروس، وذلك عام ١٩٢٤م عندما زحفت عليها الجيوش الحمراء، وأخضعتها (خوارزم واقعة فى جمهورية أوزبكستان).

وقد نبغ من أهل خوارزم، عدد كبير من العلماء والفلاسفة والأطباء والفلكيين والرياضيين حتى أن علم (اللوغاريتمات) دائما ينسب فى الواقع إلى الخوارزمي.

إعلام خوارزم:

وفيما يلي سترجم باختصار لبعض هذه الأعلام:

١ - داود بن رشيد الخوارزمي:

ولد هذا المحدث فى (خوارزم)، وانتقل إلى دمشق وغيرها من عواصم الإسلام، ودرس علم الحديث، على يد أكابر علماء زمانه، مثل الوليد بن مسلم، وبقية بن الوليد، وصالح بن عمرو وتلقى وروى عنه الإمام البخارى، صاحب الجامع الصحيح، الذى سبق أن ترجمنا له فى علماء بخارى، والإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صاحب صحيح مسلم، وأبو القاسم البغوي، وتوفى فى دمشق سنة ٢٣٩هـ / ٨٥٣م.

٢ - أبو طالب طاهر جعفر الخزمي الخوقندي الخوارزمي:

وهو - كما ترى من نسبه من أشرف قريش، من قبيلة بنى مخزوم، التى هاجر أبناؤها كم هاجر أبناء القبائل العربية الأخرى، لنشر الإسلام، حتى وصلوا (خوارزم) وأقاموا بها ولقد ولد صاحب الترجمة فى (خوارزم) فى مدينة (خوقند) وتلقى الحديث على يد عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وأشتهر بقراءة القرآن وبالأدب، وسكن سمرقند، وتوفى بها سنة ٤٠١هـ / ١٠١٠م، وروى عنه الحديث ابنه محمد بن طاهر.

٣ - أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي:

ولد أبو الريحان البيروني في خوارزم سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣م، ثم انتقل إلى صاحبة من ضواحيها، وتدعى (بيرون) فنسب إليها، وتوفى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م يعد (أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني) أحد نوادر العقل البشري ونوابغه، شارك باقتدار - في معظم العلوم المعروفة في عصره، وألف فيها المؤلفات العديدة الهامة، واشتهر بالفلسفة والفلك والرياضة والتاريخ، وبلغت فهارس أسماء مصنفاة - كما يقول ياقوت الحموي - ستين ورقة، وكان ضليعا في اللغات الشرقية، فإلى جانب إجادته للغة الخوارزمية كان يجيد اللغات الفارسية، والهندية، والعبرية، والسريانية، أما اللغة التي لم يكن يكتب إلا بها فهي اللغة العربية، التي عشقها ودافع عنها.

يقول في كتابه (الصيدلة).

(ديننا والدولة عريان وتوأمين، ترفرف على أحدهما القوة الألهية، وعلى الآخر اليد السماوية).

وكم احتشد طوائف من التوابع، وبخاصة منهم الجيل والديلم في لباس الدولة جلابيب العجمة، فلم يتفق لهم في المراد سوق، ما دام الأذان يقرع آذانهم، كل يوم خمسا وتقوام الصلوات بالقرآن العربي المبين خلف الأئمة صفا صفا، ويخطب لهم في الجوامع بالإسلام غير منقسم، وحصنه غير منثلم، وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم، فازدانت، وحلت في الأفئدة، وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة وإن كانت كل أمة تستحلى لغتها، التي ألفتها واعتادتها واستعملتها في مآربها).

ثم يقول: (واقيس هذا بنفسى، وهى مطبوعة عل لغة (الخوارزمية) لو خدل بها علم، لاستغرب استغراب البعير على الميزاب، والزرافة في العراب، ثم متنقلة إلى العربية، والفارسية، فأنا في كل واحدة دخيل ولها متكلف، والهجي بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية، وسيعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسى، كيف ذهب رونقه وكسف باله، وأسود وجهه، إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكروية، والأسمار الليلية).

فأين اللغة العربية - اليوم - لم تعد لغة العلوم والفنون، بل أصبحت لغة العلم فى جامعاتنا ومدارسنا هى الإنجليزية أو الفرنسية، وانظروا إلى العرب أنفسهم كيف يدرسون الطب، أو الفلك، أو النبات، أو الجيولوجيا، أو أى علم من العلوم (غير العلوم الشرعية) تجدهم فى ذلك يدرسونها بلغة الأفرنج، ويفتخرون بذلك، ولا يريدون أن يعيدوا إلى لغتهم، التى وسعت كتاب الله لفظا وغاية، وما ضاقت عن أى به وعظمت وكم من مؤتمرات قد عقدت لإعادة تدريس العلوم باللغة العربية، ولكنها - للأسف - إلى الآن، لم تسفر عن شىء وأنت ترى كيف كان (البيرونى) يشهد للغة العربية بأنها لغة العلم وأن الكتابة العلمية بغيرها لا تقوم بالغرض، ولا تفى بالمقصد، ويتحدث عن اللغة الفارسية يذهب رونقه، ويسود وجهه، ويزول الانتفاع به، ويعد الفارسية لغة للأسمار والحكايات، أما لغة العلم فهى العربية - بلا جدال.

ومن مؤلفات هذا العالم المؤرخ الجغرافى الفلكى الفيلسوف:

(الآثار الباقية عن القرون الخالية).

و(تاريخ الهند).

وجميعها فى التاريخ.

وله فى الفلك والجغرافيا:

(القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم والجغرافيا).

و(الإرشاد فى أحكام النجوم).

و(التفهيم لصناعة التنجيم).

و(تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات الأماكن).

وله فى شرح عقائد أهل الهند (تحقيق ما للهند من مقولة فى العقل أو

مرزوله)

وله فى الهندسة والرياضة كتاب (استخراج الأوتار).

وغيرها كثير، مثل (الجماهر فى معرفة الجواهر)

و(كتاب الصيدلة).

و(كتاب الاستيعاب فى صفة الأسطرلاب) هو آلة فلكية لمعرفة مواقع النجوم.

و(كتاب لوازم الحركتين) الذى صنفه للسلطان مسعود، والذى قال عنه ياقوت الحموى (وهو كتاب جليل لا مزيد عليه اقتبس أكثر كلماته من آيات من كتاب الله عز وجل).

ولليرونى كتاب فى الشعر والأدب سماه (مختار الأشعار والآثار). وله شرح لديوان (أبى تمام) أعجب به ياقوت، وقال أنه رآه بخط المؤلف.

وكان البيرونى - أيضا - شاعرا مجيدا، قال عنه الأديب الناقد الصفدى: (يا عجب كل العجب من نظم هذا الرجل هذا النظم، إذ ليس هذا فنه، ولا عرف به فهذا شعر جيد).

وقال عنه ياقوت فى (معجم الأدباء) أنه كان أديبا أريبا لغويا، ولذا ذكره فى (معجم الأدباء).

وهكذا كان (البيرونى رحمه الله - قمة من القمم، التى امتلأ بها تاريخ بلاد ما وراء النهر (التركستان) التى كانت ترزخ - تحت الاستعمار الروسى، فأين هذا الماضى المشرق المجيد مما عليه المسلمون - اليوم - من تخلف وضياع وتمزق؟

٤ - أبو عبد الله محمد الخوارزمى:

يعد (أبو عبد الله الخوارزمى) أقدم كاتب مسلم ألف كتابا موسوعيا (دائرة معارف) سماه (مفتاح العلوم) وتكلم فيه عن جميع علوم عصره، من الطب، والهندسة، والرياضيات، والفلك، والفلسفة، والجغرافيا، وعلوم الهيئة وغيرها من علوم ذلك الزمن. أهدى كتابه إلى وزير السلطان (نوح السامانى) عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م.

٥ - أبو بكر الخوارزمى:

ولد فى خوارزم عام ٣٢٤هـ / ٩٣٥م، واشتهر بالأدب، والشعر، والكتابة، وانتقل إلى الشام وأقام بها، وخلد اسمه برسائله الأدبية المسجعة، التى جمعت المدائح، والمراثى، والأهاجى والنظرات الأدبية والحكمية، وطبعت رسائله عدة مرات، وتوفى فى الشام عام ٣٨٣هـ / ٩٩٣م.

٦ - محمد بن موسى الخوارزمي:

واضع علم الجبر والمقابلة ومبتكر حساب اللوغاريتمات وهو تحريف لاسمه كما يفعل الغربيون عادة، وهو أول من حل معادلات الدرجة الثانية الجبرية. كما اشتهر بعلم الفلك والتنجيم، وكان أحد الفلكيين (الذين عملوا في مرصد المأمون). وله كتب في علم الفلك منها (الزيح) و(العمل بالأسطرلاب) وقد اشترك في قياس محيط الأرض أيام المأمون مع مجموعة من العلماء المسلمين... ويعتقد أن مولده كان سنة ١٦٤هـ/ ٧٨٠م وكانت وفاته سنة ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م.

٧ - محمد بن العباس الخوارزمي:

ولد سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م وتوفي سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م. يعد محمد بن العباس الخوارزمي من أئمة الكتاب البلغاء، ثقة في اللغة، وفي معرفة الأنساب، وهو صاحب الرسائل المعروفة برسائل الخوارزمي وله ديوان شعر، وهو ابن أخت المفسر المؤرخ المشهور الإمام ابن جرير الطبري، أمه من طبرستان، وأبوه من خوارزم واستوطن نيسابور، ودفن بها عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م.

٨ - شمس الدين محمد بن إسحاق الخوارزمي:

عالم حنفي، انتقل من خوارزم إلى مكة، وأقام بها، وألف كتاب (إثارة الترغيب والتشويق إلى المساجد الثلاث والبيت العتيق) واستخدم مهارته الفائقة في الرسم في تصوير هذه المساجد، ورسمها بمهارة واقتدار (وكان يبيع لوحاته على الحجاج) فانتشرت في بقاع الأرض وتوفي سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م.

٩ - محمد بن علي الهراشي الكاشي:

نسبة إلى كاش من مدن (خوارزم)، وهو أديب عالم باللغة وآدابها، واشتهر برسائله البليغة وله عدة مصنفات، منها كتابه (التصريف) (وشرح ديوان المتنبي) (ومجموعة رسائل) (وديوان شعر).

١٠ - الشريف شرف الدين إسماعيل:

من أهل خوارزم، اشتهر بالطب، وكان كما وصفه ابن أبي أصيبعة - في (طبقات الأطباء) طبيبا عالي القدر، وافر العلم، وجيها في الدولة، وكان الطبيب

الخاص للسلطان (علاء الدين محمد خوارزم شاه) وقد ألف عدة مصنفات، منها كتابه (التصريف) (وشرح ديوان المتنبي) (ومجموعة رسائل) (وديوان شعر).

١١ - محمد بن محمد الكردي:

الخوارزمي البرازي فقيه حنفي من كردر قرية (بخوارزم) تنقل في بلاد القرم والبغار وحج واشتهر من كتبه (لجامع الوجيز) في فقه الحنفية والمناقب الكردية ومختصر في تعريفات الأحكام توفي سنة ٨٢٧هـ / ١٤٢٤م.

١٢ - برهان الدين ناصر بن عبد السيد الخوارزمي المطرزي:

عالم فقيه لغوي من فقهاء الأحناف ولد في الجرجانية (خوارزم) سنة ٥٣٨هـ / ١١١٤م ووفى بها سنة ٦٤٠هـ / ١٢١٢م كان رأساً في الاعتزال من كتبه (الإيضاح) و(شرح مقامات الحريري) و(المصباح) في النحو و(المعرب) في اللغة و(الإقناع بما حوى تحت القناع).

١٣ - الإمام الزمخشري:

بهذا الإمام العظيم نختم ذكر من اشتهر من علماء خوارزم وقراها ن وقد ولد (جار الله محمود بن عمر الزمخشري) عام ٤٦٧هـ / ١٠٧٥م في قرية (زمخشر) وهي من قرى (خوارزم) وإليها ينسب، وقد سافر إلى مكة، لطلب العلم، وجاور بها، فلقب جار الله، ثم تنقل في بلدان العالم الإسلامي، وعواصم العلم، ينهل من ينابيع الفياضة، ثم عاد إلى الجرنية (كركانج) عاصمة خوارزم وأقام بها ينشر العلم، ويؤلف حتى وافاه الأجل عام ٥٣٨هـ / ١١٤٤م..

أشهر كتبه (الكشاف) في تفسير القرآن، وهو أحد أهم المراجع في تفسير القرآن الكريم، وقد توسع فيه في الأمور اللغوية، وينكر عليه ميله للمعتزلة، وأخذ بآرائهم ودفاعه عنهم، وعلى الرغم من ذلك، فإن (الكشاف) لا يستغنى عنه طالب علم. ومن أشهر كتبه «المفضل» في النحو شرحه أبو حيان في أربعة أجزاء.

وله كتب فى اللغة ، منها كتابه (أساس البلاغة) (ومقدمة فى اللغة) وله كتب فى الجغرافيا مثل كتابه (الجبال والأمكنة والمياه) وله كتاب جمع فى الأمثال وسماه (المستعصى فى المثال) و(القسطاس فى العروض) و(ربيع الأبرار) فى الأدب، (ونكت الأعراب فى غريب الأعراب) والنحو و(أطواق الذهب) و(أعجب العجب فى شرح لامية العرب) وله إلى جانب ذلك - دراية واسعة فى الحديث وله كتاب (الفائق فى غريب الحديث) وهو يدل على تبحره وتوسعه فى علوم الحديث .
وله إلى جانب ذلك كله ديوان شعر جيد، وله معجم عربى فارسى سماه (المقدمة).

الحياة الثقافية

فى أسفيجات وفاراب وإقليم الشاش وفرغانة

أسفيجاب:

اسم بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر فى حدود تركستان (الشرقية) ولها ولاية واسعة وقرى كالمدين كثيرة . . كانت من أعمار بلاد الله وأنزهها وأوسعها خصبا وشجرا ومياهاها جارية ورياضا مزهرة . . ولم يكن بخراسان ولا بما وراء النهر بلدا لا خراج عليه إلا أسفيجاب لأنها كانت ثغرا عظيما فكانت تعفى من الخراج وذلك ليصرف أهلها خراجها فى ثمن السلاح وعلى المجاهدين والمرابطين فى هذا الثغر . . . وكذلك كانت المدن القريبة منها مثال طراز وصبران وفاراب وسانيكيث . . . ثم أتت على تلك النواحي حوادث الدهر وصروف الزمان عندما خربها خوارزم شاه محمد بن تكش عندما خانه بعض أمرائها . . . وجاءت الطامة الكبرى بورود التتار عليها سنة ٦١٦هـ فأهلكوا من بقى من أهلها وحطموا ديارها وقتلوا رجالها ونساءها فلم يبق من تلك الجنان المندورة والقصور المشرفة غير حيطان مهدومة وآثار من أمم معدومة (وقد كان أهل تلك البلاد أهل دين متين وصلاح مبين ونسك وعبادة . . . والإسلام فيهم غض يحفظون حدوده ويلتزمون شروطه) تظهر فيهم بدعة استحقوا بها العذاب والجلاد ولكن يفعل ذلك لعباده ما يشاء ويحكم ما يريد).

وقد خرج من اسفيجاب طائفة من أهل العلم فى كل فن منهم:

أبو الحسن على بن منصور المقرئ المؤدب الأسفيجابه بعد سنة ٣٨٠هـ.

كما خرج منها جماعة من الفضلاء:

علماء فاراب:

(١) إسماعيل بن حماد الجوهري، المتوفى سنة ٣٩٣هـ:

وهو من أئمة اللغة العربية، وصاحب كتاب (الصحيح) وله - أيضا - كتاب فى العروض ومقدمة فى النحو، سافر من بلدة (فاراب) صغيراً، حتى وصل (العراق) ومنها سافر من بلدة (فاراب) صغيراً، حتى وصل (العراق) ومنها سافر إلى (الحجاز) ثم عاد إلى (نيسابور) بخراسان، وبها أقام، واشتهر، وظهرت علومه اللغوية وأخذ عنه جم غفير من العلماء.

كان مهتماً بالطيران، وقد صنع لنفسه جناحين من خشب وصعد إلى سطح دار هونادى فى الناس، لقد صنعت ما لم أسبق إليه، وسأطير ثم ظهر عليه أهل نيسابور ينظرون إليه فتأبط جناحيه وسقط قتيلاً.

(٢) إسحاق الفارابى المتوفى سنة ٣٥٠هـ:

وهو أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم، صاحب (ديوان الأدب) فى اللغة خال إسماعيل بن حماد الجوهري، وقد انتقل إلى اليمن، وأقام بزبيد.

(٣) أبو نصر محمد بن طرخان الفارابى، المتوفى سنة ٣٣٩هـ:

وهو الفيلسوف، الحكيم، الفلكى، الرياضى، الطبيب، المؤرخ، المشهور، أعظم فلاسفة المسلمين، وأول من نقل كتب (أرسطو) وشرحها، وعلق عليها، وسمى بالمعلم الثانى لأن «أرسطو» كان يدعى المعلم الأول.

انتقل إلى بغداد من (فاراب) وعاش بها، ثم انتقل إلى (دمشق) وبقي بها إلى حين وفاته، وكا يجيد اللغات الشرقية المعروفة فى عصره، وهى: العربية، والفارسية، والتركية ولغة الهند، كما كان يجيد اللغة اليونانية.

تعلم الفلسفة على يد (يوحنا بن جيلان) وتلمذ على يد (عبد الله بن محمد بن سلمة المقدسى الفارابى) وسمى الحديث بدمشق من (هشام بن عمار) و(عبد الله بن أحمد بن بشير) و(عباس بن الوليد الخلال) و(أبى محمد بن عبد الرحمن الدمشقى) و(دحيم).

وقد روى عنه الحديث (أبو بكر وأبو زرعة) ابنا (أبى دجانة)، (وأبو بكر بن المقرئ) وغيرهم.

قال عنه (ابن أبى أصيبعة) فى كتابه (عيون الأنبياء فى طبقات الأطباء):

(وكان رحمه الله فيلسوفًا، وإمامًا فاضلاً، قد أتقن العلوم الحكيمة وبرع فى العلوم الرياضية، زكى النفس، قوى الذكاء، متجنباً عن الدنيا، مقتنعاً منها بما يقوم بأوده يسير سيرة الفلاسفة المتقدمين، وكانت له قوة فى صناعة الطب، وعلم الأمور الكلية منها، ولم يباشر أعمالها، ولا حاول جزئياتها).

وقد كان (الفارابى) - فى أول مرة - ناظرًا فى بستان فى دمشق، فقيرا - يسهر الليل، يقرأ، ويكتب، ويؤلف، على ضوء قنديل حارس البستان، ثم ظهر فضله، وعظم شأنه، واشتهرت تصانيفه، وكثر تلاميذه، واتصل بسيف الدولة، وأكرمه إكراماً بالغاً، وسافر (الفارابى) قبيل وفاته بعام (أى عام ٣٣٨) إلى مصر، ثم عاد إلى دمشق، وتوفى بها سنة ٣٣٩، وصلى عليه سيف الدولة. ويذكر من فضله وزهده أنه لم يكن يتناول شيئاً مما ينعم به عليه سيف الدولة، سوى أربعة دراهم، فى اليوم، يقتاتها هو وأهله.

وكان - فى أول أمره - قاضياً، ثم ترك القضاء، ليتفرغ لعلوم الفلسفة، والرياضة والفلك، وغيرها.

وكان له فى علم الموسيقى باع طويل، وهو أول من اخترع القانون، قال عنه (ابن أبى أصيبعة): ويذكر أنه صنع آلة غريبة يستمع منها ألحانا بدیعة يحرك بها الانفعالات). ويقال أنه كانت له القدرة على العزف عليها، فبيكى سامعه، ثم يشجيه، ثم ينميه، ويخرج (الفارابى) وسامعه نائماً.

وقد شرح (الفارابى) قصة ظهور الفلسفة (اليونانية) وكيف انتقلت إلى الإسكندرية، ثم كيف أخفت الكنيسة كتب (أرسطو) وغيره من فلاسفة الإغريق،

وكيف حاربتها حربا شعواء فى روما، والإسكندرية وجميع أراضى الإمبراطورية الرومانية، إلا شيئاً يسيراً من المنطق، استعانوا به فى جدلهم، حتى ظهر الإسلام.

وكانت كتب (أرسطو) مخفية عند رجل، فنسخها منه رجلان، أحدهما من (مرو) والآخر من (حاران) فأما الذى من (مرو) فتعلم منه (إبراهيم المروزى) و(يوحنا بن جيلان) وأما (الحرانى فتعلم منه (قويرى) وقام (قويرى) بنشر كتب (أرسطو) وتعليمها، وكذلك فعل (إبراهيم المروزى) و(يوحنا بن جيلان) وتعلم (أبو نصر الفارابى) من (يوحنا بن جيلان) ثم أتم كتب الفلاسفة قراءة، دون معلم، وكانت قراءته، على (يوحنا) فى بغداد، أيام المقتدر.

وصار (الفارابى) أشهر من شرح كتب الفلسفة اليونانية فى التاريخ، وبخاصة كتب (أرسطو) ولقب بالمعلم الثانى، لأن (أرسطو) كان يحمل لقب المعلم الأول. ولم يكتب الفارابى بذلك، بل أضاف إلى مختلف العلوم إضافات جديدة، وهو أول من أوضح علم المنطق بعبارة سهلة، وأول من وضع موسوعة علمية وافية، وأسماها (إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها).

قال عنه (ابن أبى أصيبعة): (ثم له - بعد ذلك - كتاب شريف فى إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها، لم يسبق إليه، ولا ذهب أحد مذهبه فيه، لا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به، وتقديم النظر فيه).

ويقول (ابن أبى أصيبعة) (ولا أعلم كتاباً أجدى على طالب الفلسفة منه).

وقد استفاد (ابن سينا) من كتب (الفارابى) فائدة عظيمة، وقال أنه استغلق عليه فهم الألهيات من كتب الفلسفة، حتى عثر على كتاب (الفارابى) فى العلم الإلهى، فحل له أشكالها وأبان غامرها، وقرأ (ابن سينا كتب الفارابى) فى الفلسفة، وعليها تتلمذ.

(وللفارابى) دعاء، وابتهاج أورده (ابن أبى أصيبعة) وسنقله عنه، لأنه يوضح مذهب الفارابى، وإيمانه بالله على طريقة (الفلاسفة) المسلمين، الذين خلطوا العقيدة الإسلامية ببعض (آراء أرسطو) و(أفلاطون) و(أفلوطين) التى لا تتناقض العقيدة مناقضة ظاهرة، وإليك هذا الدعاء البليغ العجيب:

(اللهم إنى أسألك يا واجب الوجود (وهو تعبير فلسفى شاع عند المسلمين

بعد أن أدخله الفارابي) ويا علة العلل قديما لم يزل، أن تعصمني من الزلل، وأن تجعل لى من الأمل ما ترضاه لى من عمل، اللهم أمنحنى ما أجمع من المناقب، وارزقنى فى أمورى حسن العواقب، نجح مقاصدى والمطالب، يا اله المشارق والمغرب، اللهم ألبسنى حلل البهاء، وكرامات الأنبياء، وسعادة الأغنياء، وعلوم الحكماء، وخشوع الأتقياء، اللهم أنقذنى من عالم الشقاء والفناء، واجعلنى من أخوان الصفاء، وأصحاب الوفاء، وسكان السماء مع الصديقين والشهداء، أنت الله لا إله إلا أنت يا علة الأشياء، ونور الأرض والسماء، أمنحنى فيضا من العقل الفعال يا ذا الجلال والأفضال. (وهذه فلسفة أفلاطون وأرسطو وأفلوطين التى تقول بأن الله خرج منه. العقل الفعال، ومن العقل الفعال ظهرت الكواكب السبعة السيارة، ومن الأجرام السبعة ظهرت بقية الأجرام السماوية ومنها ظهرت الأرض والمخلوقات، حسب نظرية الفيض المتسلسلة عبر عشر مراحل التى جاء بها أفلوطين).

هذب نفسى بأنوار الحكمة، أوزعنى شكر ما أوليتنى من نعمة، أرنى الحق حقا، وألهمنى إتباعه، والباطل باطلا، وأحرمنى اعتقاده، هذب نفسى من طيئة الهيولى (يعود الفارابى لتعبيرات أرسطو طاليس) إنك أنت العلة الأولى:

يا علة الأشياء جمعا والذى

كانت به عن فيضه المتفجر

رب السموات الطباق ومركز

فى وسطهن من الثرى والأبحر

إنى دعوتك مستجيرا مذنبا

فاغفر خطيئة مذنب ومقصر

هذب بفيض منك رب الكل من

كدر الطبيعة والعناصر مذنب عنصرى

ويستمر (الفارابى) فى دعائه العجيب البليغ، الذى يخلط فيه دعوات

الرسول ﷺ مع تعبيرات الفلسفة اليونانية الألهية، مما يدل على عمق تأثره بها تأثر

عن فهم عميق، وإدراك لأسرارها مع خلطها بما قد يصادم العقيدة الإسلامية مصادمة واضحة أحياناً.

ولم ينجح (الفارابي) في بعض التعبيرات التي أشرنا إليها، وبخاصة في اعتقاده أن الكواكب السيارة هي المدبرة للكون، الفاعلة له، وإن كانت إنما تفعل ذلك، لأنها من فيض العقل الفعال، الذي هو من فيض الله.

ويستمر (الفارابي) في دعائه الذي يظهر فيه خشوعه، وتبتله، كما يظهر فيه سعة علمه سعة واسعة بعلوم زمانه، مع بلاغته وقوة أسلوبه:

(اللهم رب الأشخاص العلوية، والأجرام الفلكية، والأرواح السماوية، غلبت على عبدك الشهوة البشرية، وحب الشهوات، والدنيا الدنية، فاجعل عصمتك مجنى من التخليط، وتقواك حصني من التفريط، إنك بكل شيء محيط، اللهم أنقذني من لأسر الطبائع الأربع، وانقلني إلى جانبك الأوسع وجوارك الأرفع.

«اللهم إنك قد سجت نفسي في من العناصر الأربعة، ووكلت بافتراسها سباعاً من الشهوات اللهم جد لها بالعصمة، وتعطف عليها بالرحمة، التي هي بك أليق، وبالكرم الفائض، الذي هو منك أجدر وأخلق، وأمن عليها بالتوبة العائدة بها إلى عالمها السماوي، وعجل لها بالأوبة إلى مقامها القدسي، وأطلع على ظلماتها شمسا من العقل الفعال، وأمط عنها ظلمات الجهل والضلال، واجعل ما في قواها بالقوة كامناً بالفعل، وأخرجها من ظلمات الجهل إلى نور الحكمة وضياء العقل» إلخ إلخ

ونجد تأثير هذه الفلسفة اليونانية قويا جدا، لدى جميع الكتاب المسلمين، وبخاصة لدى الفلاسفة والأطباء منهم، وحتى أولئك الفقهاء والمحدثين، فإنهم تأثروا بهذه النظرة، وبخاصة من كتب منهم في الطب النبوي، من أمثال ابن القيم، والسيوطي، والذهبي، وابن السني، وأبي نعيم الأصبهاني، والمفقه عبد اللطيف البغدادي، وغيرهم كثير.

ومما تقدم مما ذكرناه من دعاء (الفارابي) وابتهالاته إلى الله سبحانه وتعالى

ندرك مدى تأثير الفلسفة (اليونانية) الألهية المتمثلة في فلسفة (أفلاطون) و(أرسطو طاليس) (أرسطو اختصارا) و(أفلوطين).

ونجد نظرية الفيض الإلهي في خلق الأكوان تجد صداها، لدى فلاسفة المسلمين وأطبائهم من أمثال: أبي بكر الرازي، وابن سينا، ولا شك يعود سبب ذلك إلى جهود (الفارابي) في نشر الفلسفة (اليونانية الألهية).

وعلى الرغم من أن أبا بكر الرازي («الطبيب الفيلسوف» وهو غير الفخر الرازي المفسر الأصولي الفقيه الطبيب المشهور) قد عاصر (أبا نصر الفارابي) بل هو متقدم عليه في الميلاد إذ قبل (الفارابي) بست وعشرين سنة، فإننا لا نستطيع أن نقول أن الفارابي قد تأثر بأبي بكر الرازي، التي اهتم أيضا بالفلسفة (اليونانية) وألف فيها الكتب.

ويبدو من تاريخ حياة هين الطودين الشامخين أن (الرازي) كان مهتما بالطب، وبرع فيه أكثر من اهتمامه بالفلسفة، كما أن (الفارابي) اهتم بالفلسفة أساسا، وكان اهتمامه بالطب عرضا بسبب اهتمامه بالفلسفة، ولم يمارس الطب في حياته قط.

ومع هذا نجد جوانب مشتركة بينهما إذ أننا نجد في رسالة صغيرة لأبي بكر الرازي سماها (المدخل الصغير إلى عالم الطب) نظرية الفيض الألهي، كما وضعها (أفلوطين) وهو نفس ما يقوله به (الفارابي) أيضا، وأن كان (الفارابي) بطبيعة الحال - أكثر توسعا في شرح الفلسفة اليونانية الألهية - وتقديمها إلى المثقف المسلم بأسلوب سهل، بعد أن كانت عسيرة الفهم، صعبة العبارة، لا يقبل عليها إلا الآحاد.

بل أن فلسفة (أفلوطين) و(أرسطو) بالذات لا تنتقل إلى الثقافة الإسلامية ومن ثم إلى الثقافة الأوروبية، إلا عبر ترجمات (الفارابي) وشروحه العديدة لها.

وقد رأينا كيف حرمت الكنيسة قراءة كتب الفلسفة اليونانية ما عدا فصول محدودة من علم المنطق، ولم تستطع أوروبا أن تصل إلى الفلسفة الإغريقية، إلا عبر ترجمات (الفارابي) وشروحه وتعليقاته العديدة وإضافته الغزيرة.

وهكذا نرى (الفارابي) طودا شامخا في مختلف العلوم العقلية الفلسفية،

وتتلمذ عليه، وعلى كتبه، أجيال عديدة من مثقفي المسلمين، ومثقفي أوروبا، وبرع هذا العلم الشامل في مختلف فروع المعرفة، وألف فيها حتى بلغت كتبه أكثر من مئة كتاب في الفلسفة، والسياسة، وعلوم الأحياء، والموسيقى، والرياضيات، والمنطق، والخطاب، والأدب، والتاريخ، وقيادة الجيوش، والفقه، وقد سمع الحديث من أئمة الحديث في عصره، وقد سمع منه، وروى عنه جماعة من المحدثين، كما يروى عنه (ياقوت الحموي) في (معجم البلدان) ويا له من طودا شامخ في مختلف فروع العلم والمعرفة. . .

الحياة الثقافية في إقليم الشاش:

يعد إقليم (الشاش) أحد أقاليم ما وراء النهر الستة، حسب التقسيم الجغرافي القديم وتقع اليوم - في جمهورية (أوزبكستان) بالاتحاد السوفيتي، وعاصمة هذا الإقليم كانت تدعى (بنكث) وتدعى - اليوم - طشقند، و(طشقند) عاصمة (أوزبكستان) وقد اهتم الروس بها منذ أن استولوا على خانية بخارى عام ١٩٢٢م، وكانت (طشقند) تتبعها، وأهملوا (بخارى) و(سمرقند) لأنها أكثر استعصاء على الإذالة.

وقد وصف ياقوت الحموي في (معجم البلدان) إقليم (الشاش) ونحن ننقل وصفه - هنا بشيء من الاختصار:

(الشاش) إقليم ما وراء النهرين (جيحون) و(سيحون) خرج منها خل من العلماء والرواه والفصحاء، أهلها شافعية على الرغم من انتشار المذهب الحنفي في معظم بلاد ما وراء النهر ويرجع ذلك إلى أبي بكر محمد بن إسماعيل القفال الشاشي، الذي فارقها، وتفقهها، ثم عاد إليها، ونشر بها المذهب الشافعي.

وصفها (الأصطخري) بقوله: فأما (الشاش) و(إيلاق) فمتصلتا العمل، لا فرق بينهما: ومقدار عرض الشاش مسيرة يومين في ثلاثة، وليس بخرسان وما وراء النهر إقليم على مقداره من المساحة أكثر منابر منها، ولا أوفر قرى وعمارة، فحد منها ينتهي إلى وادي (الشاش) الذي يقع في بحيرة (خوارزم) وحد باب الحديد بيرية، بينها وبين (أسفيجاب) تعرف بقلاص، وهي مراغ، وحد آخر إلى

تنكرة تعرف بقرية النصارى، وحد إلى جبال منسوبة إلى عمل (الشاش) إلا أن العمارة متصلة إلى الجبل وما فيه مفترش العمارة.

و(الشاش) فى أرض سهلة ليس فى هذه العمارة المتصلة جبل ولا أرض مرتفعة، وهى تغر فى وجه الترك (المقصود التركستان الشرقية قبل إسلامها) وأبنيتهم واسعة من طين وعمامة دور هم يجرى فيها الماء، وهى كلها مستترة بالخضرة، من أنزه بلاد ما وراء النهر قصبته (عاصمتها) (بنكث) (طشقند) ولها مدن كثيرة وصفها (أبو الربيع البلخى) قائلا:

(الشاش) وبالصيف جنة، ومن أذى الحر جنة

لكننى يعترينى بها من البرد جنة

وقال (البشارى) (الشاش) كورة (إقليم أو مقاطعة) وقصبته (بنكث).

وإقليم الشاش مرتبط بإقليم إيلاق أوق ارتباط حتى قال عنه ياقوت (وكورته مختلطة بكورة الشاش لا فرق بينهما). ويقول بارتولد وإيلاق هى وادى أنجزيين والشاش هى وادى نهر باراك المعروف باسم جرجيق.. ولهذا النهر منبعان يخرج أحدهما من جبال بسكام ويخرج الآخر من رستاق جدغل.

وبالقرب من نهر أنجزيين تقوم مدينة بناكث وبالقرب من فم نهر جرجيق تقوم نجاكث والمسافة التى تفصل بين هاتين المدينتين ثلاثة فراسخ فقط..

ويقول المقدسى أن بناكث لم يكن بها حصن وكان جامعها. فى السوق وقد خربها المغول فى هجومهم المدمر فيما دمروا من مدن العالم الإسلامى ولكن تيمور لك أعاد بناءها وأسماها شاهرخيه تكريما لأبنة القائد المغوار (شاهرخ) ولا تزال أطلال شاهرخيه (كما يقول بارتولد) مائلة على الضفة الشرقية لنهر سرداربا (سيحون) عند فم وادى جيشجن. أسفل هذا الموضع تقوم أطلال مدينة بناكث القديمة.

ويصف بارتولد عاصمة إقليم الشاش وهى بنكث (أو طشقند الحالية حسب أحسن التخمينات) فيقول: كان يحيط بمدينة بنكث سوران داخلى وخارجى وللسور الخارجى سبعة أبواب وللسور الداخلى عشرة أبواب وكان للشهرستان

والآخر على المريض (الضاحية) . . وكان طول البلد فرسخ وعرضها فرسخ . .
وكانت المدينة وأطرافها تزخر بالبساتين والرياض .

ويشتهر إقليم الشاش وإقليم إيلاق بمعاداته الكثيرة وخاصة معدن الفضة . . .
وكان منجم الفضة على بعد مرحلة من بنكث (طشقند الحالية) . . وكانت فضة
الشاش تستخدم فى السكة (النقود) طوال العصر العباسى .

ويذكر ياقوت عن أسبره أنها ناحية بأقصى بلاد الشاش بما وراء النهر . .
وأنها بلاد يخرج منها النفط والفيروز والحديد والفضة والذهب والآنك . . وفيها
جبال الفحم الذى كان يباع الحمل والحملان منه بدرهم واحد فقط . . وكان لهذا
الفحم خاصية عجيبة إذ أنه بعد احتراقه يتحول إلى رماد شديد البياض فيستعمل
رماده فى تبييض الثياب ويتعجب ياقوت من ذلك قائلاً (ولا يعرف فى بلدان
الأرض مثل هذا) .

أما قصبه إيلاق فهى مدينة تونكث التى عب على الباحثين من أمثال بارتولد
(تحديد موقعها) وكانت الأرض المزروعة الواقعة على نهر جرجيق يطوقها من ناحية
الشمال حائط يمتد من جبال سبالك إلى وادى سرادريا (سيجون) وقد بنى هذا
الحائط لحماية المنطقة من غارات بدو الترك وذلك قبل إسلامهم وقبل فتح
السامانيين لأسفيجاب أى قبل عام ٢٢٦ / . . وينسب ابن حوقل بناء هذا الحائط
مائلة إلى حين بارتولد لها (فى بداية القرن العشرين) على شكل حاجز يسميه
الأهالى كمبير دوال أى الحائط العجوز (ويا يلها من تسمية تدل على عمره الذى
يزيد عن ١٢٠٠ عام) ويبلغ طول بقايا هذا الحائط المكتشف ٢٤ ميلا يدل على أن
طول هذا الحائط كان كبيرا جدا . وقد كان هذا الحائط يصل إلى شط نهر جرجيق
على بعد فرسخين فوق بنكث (طشقند) .

وعلى النقيض من أشروسته كان عدد مدن الشاش وإيلاق كبيرا للغاية فيذكر
الأصطخرى ٢٧ مدينة بالشاش بينما يذكر المقدسى ٣٤ مدينة . . ويذكر
الأصطخرى أسماء أربعة وقد وصف ياقوت إيلاق بما يلى :

إيلاق؛

مدينة من بلاد الشاش المتصلة ببلاد الترك (المقصود ببلاد الترك (المقصود التركستان الشرقية قبل إسلامها) على عشر فراسخ من مدينة الشاش، أنزه بلاد الله وأحسنها.

وهو عمل برأسه. . وكورت مختلطة بكورة الشاش لا فرق بينهما. .
وقصبتها تونكت وإيلاق معدن الذهب والفضة في جبالها ويتصل هذا الجبل بحدود فرغانة وقد نسب إليها قوم منهم:

١ - أبو الربيع طاهر بن عبد الله الأيلاقي؛

كان أماما تفقه على أبي بكر عبد الله بن أحمد القفال المروزي وأخذ الأصول عن أبي إسحاق الأسفرائيني، مات سنة ٤٦٥هـ / ٩٧٥م له ست وتسعون سنة.

٢ - أبو عبد الله محمد بن داود بن أحمد الأيلاقي؛

الخطيب: من إيلاق، أقام بمرود مدة وأخذ عن الحسن بن مسعود الفراء ثم انتقل إلى نيسابور وسكنها وأخذ علم (الخلاف) في أقوال الفقهاء عن محمد بن يحيى الجيزي. كان أبو عبد الله فقيها صالحا سمع الحديث الكثير من الفراوي وعبد المنعم القشيري وزاهر الشحامي وطبقتهم قم قدم مرو وأقام في المدينة إلى أن مات سنة ٥٣٩هـ / ١١٤ ومن أعلام «الشاش» الإمام أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفال (الكبير) «الشاشي»: ولد ٢٩١هـ / ٩٠٤م بالشاش، وطلب العلم، بعد أن اشتغل فترة بصنع الأقفال، وارتحل كما يفعل طلبة العلم - في ذلك العصر - إلى خراسان والعراق ثم عاد بعد أن أصبح علما في الفقه الشافعي والتفسير واللغة والحديث - سمع الحديث من أبي عروبة، وأبي بكر بن خزيمة ومحمد بن جرير الطبري، وأبي بكر الباغندي، وأبي بكر بن دريد، وروى عنه الحاكم، وأبو عبد الرحمن السلمي.

له عدة تصانيف: منها (أصول الفقه) و(محاسن الشريعة) و(شرح رسالة الشافعي) وتوفي سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م «وآدب القضاة» ٣م. ومن أعلامها الإمام أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي القفال، الملقب بفخر الإسلام:

ولد بقرية (ميافرقين) من أعمال الشاش سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٢٧م ورحل -
كعادة طلبة العلم إلى (خراسان) و(العراق) وطهر ونيغ في (بغداد) وتولى التدريس
في المدرسة النظامية أشهر جامعات العالم في ذلك الزمان، وصارت إليه رئاسة
الشافعية ببغداد والعراق.

له عدة كتب، منها: حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء) و(المعتمد)
و(الشافعي شرح مختصر المذني) و(الطلاق). والشافعي شرح كتاب الشامل لشيخه
أبي نصر بن الصباغ شرحه في عشرين مجلدا.

وتوفي ببغداد سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٤م بعد أن نشر العلم، تدريسا، وتعلّما،
وكتابة وخطابة. ودفن إلى جانب شيخه أبي إسحاق الشيرازي صاحب التنبيه
والمهذب.

ولعل القارئ يلاحظ تكرار لقب القفال في علماء الإسلام، وبخاصة علماء
بلاد ما وراء النهر، و(القفال) لقب (صنعة الأقفال) ونتيجة لهذه الجامعات المفتوحة
في المساجد تحول هؤلاء الصنائع المهرة من صنع الأقفال إلى صنع الرجال، ومن
التفنن في طرق الحديد إلى التفنن في طرق الحديث، والفقهاء واللغة، والتفسير.

وقد مر بنا ذكر الإمامين: أبي بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفال:
ومحمد بن أحمد بن الحسين القفال، وكلاهما من (الشاش) وسيأتي:

أبو بكر عبد الرحمن بن أحمد القفال المروزي، المشهور بصنع الأقفال، حتى
بلغ عمره أربعين سنة، ثم طلب العلم، وصار فيه علما أربعين سنة أخرى،
وتوفي سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م في مصر، ودفن عند قبر الإمام الشافعي، وكان
علما من أعلام الشافعية في العراق، ثم في مصر.

ومن أعلام الشاش أبو الحسن علي بن الحاجب الشاشي:

وهو أحد العلماء الأعلام في الحديث والفقهاء، طلب العلم في خراسان
والعراق والشام والحجاز، ثم عاد إلى بلاده الشاش يعلم الناس، وكانت وفاته بها.

ومن أعلامها أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم الشاشي:

كان يعد فقيه الحنفية في زمانه، ولد بالشاش، ونشأ بها، ثم ارتحل لطلب

العلم، وسكن مصر، وتولى بها القضاء، وله كتاب (أصول الفقه) المشهور باسم (أصول الشاشي) وكانت وفاته سنة ٣٢٥هـ / ٩٣٧م.

ومن أعلام الشاش أحمد بن محمد بن أحمد الشاشي:

وهو ابن فخر الإسلام محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي المتقدم كره. وكان أحمد قد أفتى في حياة والده وحدث. وبلغ مكانة عالية في العلوم الشرعية وإن لم يصل إلى مكانة والده توفي سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م.

ومنهم: أحمد بن عبد الله بن محمد الشاشي:

وهو حفيد فخر الإسلام المتقدم ذكره تفقه على ابن الخل شارح كتاب «التنبيه» للشيرازي، وكانت وفاته سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م.

ومنهم: عبد الله بن محمد ابن أحمد الشاشي:

والد أحمد بن عبد الله الشاشي... وهو أيضا ابن فخر الإسلام الشاشي. ولد سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م وتوفي سنة ٥٢٨هـ / ١١٣م. ودفن في بغداد إلى جانب والده الفخر الشاشي.

ومنهم: عمر بن محمد بن موسى الشاشي:

ولد سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م وتفقه بمرور على الإمام أبي الفضل اليمنى وسمع بها الحديث من علمائها وتنقل في البلاد طلبا للعلم. ومات بقاشان سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٢م.

ومنهم: محمد بن علي بن حامد الشاشي:

شيخ الشافعية في عصره. تفقه على الإمام أبي بكر السنجي في الشاش ثم استوطن غزني (في أفغانستان أيضا) وصنف تصانيف كثيرة وظهر بها علمه وفضله ثم استدعاه نظام الملك إلى هراة (في أفغانستان أيضا) كان مولده سنة ٣٩٧هـ / ١٠٠٦م ووفاته سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م.

ومنهم: أبو عبد الله محمد بن عمرو محمد الشاشي:

كان فقيها عالما تفقه على الإمام البغوي وحدث عنه وكانت وفاته سنة

٥٥٦هـ / ١١٦٠م

ومنهم: أبو الليث نصر بن حاتم بن بكر الشاشي:

من أوائل أصحاب ابن سريج . من تلاميذه الإمام أبي بكر محمد بن علي

الشاشي (الفعال الكبير) ومنهم الحاكم الذي قال: كتبنا عنه سنة ٣٣٩هـ / ٩٥٠م .

(علماء أشروسنة) فيصفها ياقوت بما يلي:

أشروسنة (بالضم ثم السكون وضم الراء وواو ساكنة وسين مهملة مفتوحة

ونون وهاء) .

أشروسنة بلدة كبيرة بما وراء النهر من بلاد الهياطلة بين سيحون وسمرقند

بينها وبين سمرقند ١٦ فرسخا .

قال الأصبخري: أشروسنة اسم الإقليم وليس بها مكان ولا مدينة بهذا

الاسم والغالب عليها الجبال تقع شرقها فرغانة وغربها سمرقند وجنوبها حدود كش

والصغانيان وشومان وواشجرد وراشت .

عاصمتها بنجيكت ومن مدنها ساباط وزامين وديزك وخرقانة ينسب إلى

أشروسنة عدد من أهل العلم منهم أبو طلحة حكيم بن نصر بن جند بك

الأشروسني .

ويقول بارتولد أن كبرى مدن أشروسنة هي (بنجيكت كما يذكرها ياقوت)

وأنها الآن أطلال تقع على بعد ستة عشر ميلا إلى الجنوب الغربي من أوراتبة .

أما ثاني مدن أشروسنة فهي زامين التي تقع على ضفتي نهر يخرج من

الجبال القريبة ولم يكن لها سور كعادة المدن القديمة، بل كانت الأسواق على

ضفتي نهر وتصل بينهما جسور صغار . . وهي لا تزال باقية باسم سرسندة كما

يقول بارتولد . .

وأما جيزك أو ديزك فتعتبر ثالث مدن أشروسنة . . . وكانت تقع في السهل

في رستاق فكنان واشتهرت بأنها أحد أهم مراكز المجاهدين المعروفين بالمطوعة لأنها

كانت على حدود بلاد الكفار من القبائل التركية الشرقية الذين لم يكونوا قد دخلوا في الإسلام بعد. . وكان بها عدد كبير من الأربطة والخانات المخصصة لهؤلاء المجاهدين. . ومن أشهر هذه الأربطة رباط خدايسر الذى بناه الأفشين قائد المعتصم قائد المعتصم.

الحياة الثقافية فى فاغانة

جغرافيتها ومدنها

تقع فرغانة - اليوم فى جمهورية (قيرغيزيا) فى الاتحاد السوفيتى، وقد أهملت فرغانة وأصبحت العاصمة (فرونزى) - (ويقع جزء منها فى جمهورية أوزبكستان وصف ياقوت الحموى فرغانة فى معجم البلدان فقال عنها: (مدينة وكور واسعة وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان فى زاوية، من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد لبلاد الترك، كثيرة الخيرات، واسعة الرستاق يقال كان بها أربعون منبرا، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخا، ومن ولايتها خجندة (خوقند) وتقع خوقند حاليا فى شرق جمهورية أوزبكستان.

وبفرغانة فى الجبال الممتدة بين الترك وبينهما من الأعناب والجوز والتفاح وسائر الفواكه والورد والبنفسج وأنواع الرياحين، مباح ذلك كله، لا مالك له، ولا مانع يمنع الآخذ منه، وكذلك فى جبالها وجبال كثيرة مما وراء النهر من الفستق المباح ما ليس ببلد غيره. قال الأصبخري (فرغانة) اسم الإقليم، وهو عريض، على سعة مدنها وقراها وقصبتها (عاصمتها أخسكيت، وليس بما وراء النهر أكثر قرى من فرغانة، وربما بلغ حد القرية مرحلة لكثرة أهلها وانتشار مواشيهم وزروعهم.

ويصف بارتولد أخسكيت فيقول (باختصار وتصرف):

أخسكيت: قسبة ولاية فرغانة تقع فى الجزء الشمالى منها - على شط سيحون (سرداريا) الأيمن ويذكر المقدسى وابن حوقل أنها كانت مكونة مثل المدن القديمة من قلعة (قهندز) ومدينة (شهرستان) وضاحية (ربض) وكانت دار الإمارة والحبس بالقلعة. . أما المسجد الجامع فكان بالشهرستان بجوار القلعة (كما هو

الحال فى سمرقند وبخارى) وأما مصلى العيد فكان على شط نهر جيحون (سرداريا).

وكانت الأسواق فى الشهرستانى وفى الرىض . . وكان للشهرستان خمسة أبواب وكان يسقى الشهرستان عدد من القنوات المتصلة بالنهر صب فى حياض جميلة جوانبها من الأجر والحصص مصهرجة .

وكانت المدينة تمتد لأكثر من ثلاثة فراسخ كما يقول ابن حوقل . . ويقارنها المقدسى بمدينة الرملة فى فلسطين فيقول أنها أكبر منها بمره ونصف وكانت البساتين تمتد خارج المدينة إلى فرسخين (الفرسخ ثلاثة أميال) وفى الجانب المقابل من النهر مروج ومزارع كثيرة تليها رمال تمتد بمقدار مرحلة .

وكان يربط أخسكيث بالأجزاء الجنوبية لفرغانة عدد من الطرق فكان هناك طريق مستقيم يربطها بخوقند مجتازا المفازة والرمال (سبعة فراسخ) وهناك طريق آخر يربطها بخوقند عبر مدينة باب وهناك طريق يربط أخسكيث بمدينة قبا يبلغ طوله عشرة فراسخ .

وتقع مدينة كاسان على بعد خمسة فراسخ شمال أخسكيث . . وكانت كاسان عاصمة لأمرأ فرغانة فى القرن الثامن والتاسع الميلادى .

ويعد القدسى من مدن فرغانة وقراها أربعين ذات مسجد جامع . . أما ياقوت فيصف أخسكيث بما يلى :

أخسكيث:

بالفتح ثم السكون وكسر السين المهملة وياء ساكنة وكاف وت مثلثة وبعضهم يقول بالتاء المثناة . . اسم مدينة بما وراء النهر وهى فرغانة تقع على شط نهر الشاش (نهر سيحون أو سرداريا) على أرض مستوية . . بينها وبين الجبال نحو فرسخ شمالى النهر .

ولها قهندز وريض . ومقدارها فى الكبر نحو ثلاثة فراسخ (تسعة أميال) وبنائها طين وعلى ربضها أيضا سور . . وللمدينة الداخلة (الشهرستان) أربعة أبواب .

وفى المدينة والريضة مياه جارية وحياض كثيرة، وكل باب من أبواب ربتها يفضى إلى بساتين ملتفة وأنهار جارية لا تنقطع مقدار فرسخ (٣ أميال) . . وهى من أنزه بلاد ما وراء النهر .

وقد خرج منها جماعة من أهل العلم والأدب منهم:

أبو الوفاء محمد بن محمد بن القاسم الأخرسي:

كان إماما فى اللغة والتاريخ . . توفى سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٥م وأخوه أحمد بن محمد بن القاسم كان أدبيا فاضلا شاعرا . . وكان مقامها بمرور وبها ماتا . ومن شعر أحمد يصف بلده:

من سوى تربضى خلق الله اللثاما

أن أخسكيث أم لم تلد إلا الكراما

ومنها نوح بن نصر بن محمد الفرغانى الأخرسي قدم همذان سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٤م وروى الحديث عن بكر بن فارس الناطقى وأحمد بن محمد الهروى . . وسمع بالعراق وخراسان والشام .

وتعتبر خجندة ولاية من ولايات فرغانة . . وهى مدينة تتبعها أرياف تدعى الرساتيق وقد كانت خجندة فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وحدة إدارية مستقلة ولكنها غدت بعد ذلك من أعمال فرغانة وكان لخجندة ملك قبل الإسلام . وكانت خجندة من أكبر مدن ما وراء النهر وتخضع لنفس النظام الذى كانت تتبعه تلك المدن أى أنها مكونة من القلعة (القهندز) والمدينة (الشهرستان) والضاحية (الريضة) . . وفى القلعة كان الحبس وفى الشهرستان يقوم المسجد الجامع . . أما دار الإمارة فكانت فى الريضة . . (على غير المعتاد . . لأن معظم المدن القديمة كانت دار الإمارة تقوم فى القلعة).

وقد اشتهرت خجندة بكرومها وبساتينها . . وكان عدد السكان من الكثرة بحيث لم تكن غلة الحقول المجاورة تفى بحاجتهم من الغذاء . . لذا فإن قمح المدينة كان يأتى من فرغانة وأشروسنة . (وتقع خجندة «خوقند» حاليا فى جمهورية أوزبكستان).

وكانت تشق وسط المدينة قناة تأخذ من نهر خوجة باقرغان أحد فروع نهر سرداريا (سيحون). وكانت مدينة كند تعتبر من أعمال خجندة.

وكانت الرحلة من خجندة إلى سمرقند تستغرق ثمانية أيام بالراحلة وتعتبر المنطقة الواقعة بينهما ومسافتها ١٤٨ ميلا ضمن ولاية أشروسنة وكانت المنازل في هذه الطريق مجموعة من القرى والمدن التابعة لأشروسنة وهي باركت ورباط معد وزامين وساباط وأركند وشاوكت. . ولم عاصمة أشروسنة وهي بنجكت تقع على هذا الطريق. .

وقد وصف ياقوت في معجم البلدان خجندة بما يلي (باختصار وتصرف).

خجندة: بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطئ سيحون (سرداريا) بينها وبين سمرقند عشرة أيام. . وهي مدينة نزهة ليس بذلك الصقع أنزه منها ولا أحسن فواكه وفي وسطها نهر جار والجبل متصل بها.

وفيها يقول الشاعر:

ولم أر بلدة بإزاء شرق ولا غرب بأنزه من خجندة
هي الغراء تعجب من رآها وهي بالفارسية دل مزندة

وكان سلك بن زياد لما ولي خراسان ليزيد بن معاوية بن أبي سفيان أنفذ جيشا إلى خجندة فهزموا. .

وقال الأصبخري: خجندة متاخمة لفرغانة قد جعلناها في جملة فرغانة. . وإن كانت مفردة في الأعمال عنها، وهي في غربي نهر الشاش (سيحون) وطولها أكثر من عرضها وليس في عملها مدينة غير كند، وهي بساتين ودور مفترشة ولها قرى يسيرة ومدينة وقهندز (قلعة) وهي مدينة نزهة فيها فواكه تفضل على فواكه سائر النواحي وفي أهلها جمال ومروءة وهي بلد يضيق عما يموئهم من الزروع فيجلب إليها من سائر النواحي من فرغانة وأشروسنة أكثر من سنة ما يقيم أودهم. . تنحدر السفن إليهم في نهر الشاش (نهر سيحون) وهو نهر يعظم من أنهار تجتمع إليه من حدود الترك والإسلام. . وعموده نهر يخرج من بلاد الترك في حد أوزكند ثم يجتمع إليه نهر خوشاي ونهر أوشى وغير ذلك فيعظم ويمتد

إلى أخسكيث ثم على خجندة ثم على بنكث (طشقند) ثم على بيكند فيجربى إلى فاراب فإذا جاوز صبران جربى فى برية تكون على جانبى الأترك الغزبية حتى يقع فى بحيرة خوارزم (بحر الأرال).

وينسب إليها جماعة وافرة من أهل العلم منهم أبو عمران موسى بن عبد الله المؤدب عن أبى النصر محمد بن الحكم البزار السمرقندى وغيره.

وتعتبر مرغينان من أهم مدن فرغانة وذلك منذ عهد القراخانيين ويصفها السمعانى كما ينقله عنه ياقوت فى معجمه بأنها من أشهر البلاد من نواحى فرغانة. وتليها مدينة قبا وهى الآن قرية (كوفبا) وتفوق من حيث المياه وعدد البساتين أخسكيث العاصمة نفسها. . وكانت كبقية المدن القديمة تضم (قهندز) (قلعة) وشهرستان (مدينة) وضاحية (ربض) وكانت الأسواق ودار الإمارة والحبس بالربض. . أما المسجد الجامع فكان بالقلعة وتقع المدينة على مجرى ماء متصل بنهر سيحون (سرداريا).

ومن مدن فرغانة أنديجان والنسبة إليها أنديجاني وهى من المناطق التى فتحها المسلمون مبكرا رغم أن فرغانة لم تخضع نهائيا للحكم الإسلامى إلا فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى).

وهناك أسطورة تزعم أن بفرغانة قبر النبى أيوب ولا تزال موجودة إلى اليوم باسم حضرت أيوب وحولها مياه يستشفى بها لأنهم يعتقدون أنها هى التى استشفى بها أيوب عليه السلام. . وتقع حضرت أيوب هذه على بعد ميل ونصف من قرية جلال آباد بالقرب من مدينة أنديجان ووصفها المقدسى، ويذكر بارتولد فى كتابه التركستان نقلا عن جمال قرشى أن فى منطقة أسيد بولان بفرغانة قبور الفين وسبعمائة من الصحابة والتابعين الذين بعثهم عثمان بن عفان رضى الله عنه تحت أمرة محمد بن جرير فاستشهدوا جميعا فى واقعة مع الكفار. . ولا يزال هذا الموضوع قائما إلى اليوم كما يقول بارتولد. كما نجد فى منطقة فرغانة فى خوقند قبر الإمام عبد الله بن على زين العابدين بن الإمام السبط الحسين بن على المتوفى عام ١١٣هـ / ٧٣١م.

وفى رباط سرهنك فى قرية كاخ من أعمال فرغانة نجد قبر فاتح بلاد ما وراء

النهر قتيبة بن مسلم الباهلى ويشير الأهالى إليه باسم مقبرة (الإمام الشيخ قتيبة) فى جلال كدك من أعمال أنديجتن .

ويصف ابن حوقل الأضطخرى مناجم الفحم فى جبال أسيره . . وكانت تباع ثلاثة أوقار (والوقر حمل حمارا) بدرهم فقط . هكذا كانت فرغانة، أما بعد دخلها الروس القياصرة، وذلك عام ١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م فقد أقاموا بها مستعمراتهم، وطردها سكانها، وبحلول عام ١٣٣٤هـ / ١٩١٥م - كان الروس قد أقاموا ثمانين مستعمرة روسية، وفى عام ١٣٣٥هـ / ١٩١٦م - ثار الأهالى ضد القوات الغازية، فأبادت القوات الروسية مائة وخمسين ألفا من الأهالى . وشردت مئات الألوف، الذين فروا إلى الجبال، حيث لاقى العديد منهم حتفهم، نتيجة المجاعة الرهيبة، التى سببتها القوات الروسية بإحراقها المحاصيل، وتكررت حرب الإبادة، بعد أن جاء لينين وقامت الثورة الشيوعية بأبشع مما كانت عليه أيام القياصرة، وأبيد سكان المنطقة الشمالية من إقليم فرغانة (جمهورية قرغيزيا) عن بكرة أبيهم، حتى المواشى والأغنام لم تسلم من الإبادة، وفى المناطق الجنوبية التى بقى فيها القغيز (لأنها أقل خصوبة من المناطق الشمالية) تناقص عدد المواشى من ٦ مليون راس عام ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م إلى مليونى رأس عام ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م وذلك حسب الإحصاءات الرسمية السوفيتية . ولم تترك روسيا حتى أولئك الذين تظاهروا بالشيوعية وساروا فى ركابها من سكان القرغيز، بل أبعدت رئيس وزراء قيرغيزيا (يوسوف عبد الرحمانوف) وأعدمت رزفيلوف وعبد الكريم صديقوف لأنهما طالبا بإشباع سكان قيرغيزيا من حاصلاتها الزراعية قبل إرسال المنتجات الزراعية إلى موسكو . وفرغانة (قيرغيزيا) غنية فى ثروتها الزراعية والمعدنية وأهم حاصلاتها: القطن والشوندر السكرى، والحبوب، والفواكه، وأهم معادنها: الذهب، والقصدير، والتوتياء، والبتروول، والفحم، الأتومنى، والزئبق .

كانت (فرغانة) مسقط رأس علماء أجلاء مثل أحمد بن كثير الفرغانى الذى عاش فى زمن الخليفة العباسى المتوكل، وقد انتقل هذا العالم المهندس من فرغانة إلى بغداد حيث اشتهر فى علم الهيئة، ثم طلبه حاكم مصر إلى القاهرة فأنشأ بها المقياس الجديد لفيضان النيل فى منيل الروضة بالقاهرة . ومن علماء (فرغانة) الذين ينسبون إليها أبو منصور أحمد بن عبد الله الفرغانى الذى ولد عام ٣٢٧هـ /

٩٣٨م، وتوفى سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م انتقل إلى مصر، وسكن بها إلى أن وافته المنية، واشتهر بمؤلفاته التاريخية، منها (سيرة كافور الأخشيدى) وسيرة العزيز (التاريخ). ومنها على بن أبى بكر بن عبد الجليل الفرغانى المرغينانى الذى يعد أحد مشاهير علماء الأحناف، نسبته إلى (مرغينان) وهى إحدى قرى (فرغانة) ولد سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٥م وتوفى سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٤م وكان حافظا مفسرا محققا فقيها أدبيا من تصانيفه (بداية المبتدى) وشرحه (الهداية فى شرح البداية) و(منتقى الفروع) و(الفرائض) و(مناسك الحج) و(مختارات النوازل) وفتاويه جمعها فى كتاب أسماء (التجنيس والمزو) ومنها حاجب ابن مالك بن راكين الفرغانى انتقل من بلده فرغانة إلى دمشق وحدث بها عن أحمد بن إبراهيم البالس وأحمد بن حمدون وعمرو بن على وهلال بن العلاء وغيرهم. . وروى عنه سعيد بن الأعرابى ويوسف الميانجى وأبو بكر بن ابى دجانة وأبو القاسم الطبرى وغيرهم وكانت وفاته بدمشق سنة ٢٠٦هـ / ٨٢١م.

ومنها: أبو الفتح محمد بن إسماعيل الفرغانى دخل نيسابور، وتلقى علوم الحديث ومنها حسام الدين محمد بن محمد بن عمر الأجنسكى نسبة إلى (أخسكىث) وهى عاصمة إقليم فرغانة آنذاك وتوفى سنة ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م وهو فقيه حنفى أصولى، له كتاب (المنتخب فى أصول المذهب)، المشهور بالمنتخب الحسامى، الذى شرحه القاسم الجنسكى ولد سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٤م فى فرغانة وهى (أخسكىث) اشتهر بالأدب، وحسن الصنعة فى الكتابة، واختاره الحكام والسلاطين، ليكون كاتبهم، له مصنفات فى الأدب، منها كتابه (الزوائد) فى شرح سقط الزند - للمعرى وتوفى بمرور سنة ٥٣٨هـ / ١١٣٤م.
